

من روائع الأدب الإيطالي

12 قصة قصيرة

تُشر لأول مرة

أشرف عليها وأعدّها للنشر

محمد حامد



مقدمة

يشمل الأدب الإيطالي روائع عديدة كُتبت منذ بدايات القرن الثالث عشر الميلادي. كما أنه عزّز حركات ثقافية مهمة كان لها أثر دائم على آداب قومية أخرى. ولم تصبح اللغة الإيطالية لغة قومية عامة إلا بعد عام 1870م. ومع ذلك فإن إحدى خصائص الأدب الإيطالي أن له لغة موحدة خلال تاريخه الطويل. وقد حدث هذا التوحيد لأن ثلاثة كُتّاب إيطاليين كبار في القرن الرابع عشر الميلادي هم دانتي الجييري وبترارك وجيوفاني بوكاتشيو كتبوا بلغة مبنية على اللهجة التسكانية التي كان يتحدث بها أهل فلورنسا. ولقد قلّدت لغتهم وأعمالهم لبضعة قرون في الوقت الذي درج فيه الإيطاليون على استعمال لهجات منطوقة عديدة.

العصور الوسطى

يعتقد بعض العلماء أن الأدب الإيطالي نشأ عام 1225م عندما كتب القديس فرانسيس الأسيسي أنشودة الشمس. وكانت هذه القصيدة أول كتابة أدبية في اللغة الدارجة بدلاً من اللاتينية، وكانت تعبّر عن المشاعر الدينية للجماهير، لهذا تُعدّ أول صوت إيطالي في الأدب.

وفي صقلية تردّد صوت إيطالي آخر. ففي بلاط الإمبراطور فريديريك الثاني في باليرمو خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، تجمع الكثير من المفكرين والشعراء. وقد عُرف هؤلاء باسم المدرسة الصقلية إذ كتبوا بلهجة صقلية مهذّبة. وقلّدت قصائدهم قصائد العشاق التي تَغنى بها شعراء التروبادور الأوائل. وقد ابتكر هؤلاء الشعراء أشكالاً جديدة من الشعر مثل السوناتة وهي قصائد قصيرة جداً.

تفرّقت المدرسة الصقلية بوفاة مانفرد بن فريديريك الثاني

عام 1266م وانحطاط القوة السياسية في صقلية. إلا أن أعمالها أصبحت نموذجًا يحتذيه الشعراء الآخرون وخاصة في تسكانيا. وهناك لاقى غيتون دا أرزوا الاستحسان لما كتب من شعر في الحب بلغته الواقعية والغامضة في آن واحد. وقد عارض ريادته الفنية الشاعر غيدو غوينيزي أوف بولونا. ويعد غوينيزي مؤسس ما عرف بالإيطالية بأسلوب السلس الجديد، وهي مدرسة أضافت بعدًا فلسفيًا لشعر العشق التقليدي. حيث اعتبر شعراء هذه المدرسة النساء مخلوقات ملائكية والحب مصدر الفضيلة. وأثر هذا الفهم الجديد للحب، الذي عُبر عنه بأسلوب عذب صاف، على بعض شعراء فلورنسا وبشكل خاص غيدو كفالكانتي والشاعر الشاب دانتي أليجيري. وقد ساعدت الكوميديا الإلهية (1321م) لدانتي وهي أحد أروع الإنجازات الشعرية، على تكوين اللغة الإيطالية الأدبية.

الزعة الإنسانية وعصر النهضة

شجّع بترارك على نشر أفكار ومواقف جديدة في الأدب الإيطالي في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وساعد على تأسيس الزعة الإنسانية وهي حركة سعت إلى إحياء الثقافات الكلاسيكية وتأكيد أهمية الفرد. انظر: الزعة الإنسانية. كتب بترارك معظم مؤلفاته باللاتينية. إلا أنه في كانزونير (كتاب الأغاني)، وهو مجموعة من القصائد باللغة الإيطالية، تحدث عن حبه لامرأة تُسمى لورا بلغة جميلة أصبحت نموذجًا يُحتذى لعدة قرون.

أما صديق بترارك الحميم جيوفاني بوكاتشيو فقد كتب هو الآخر بعض مؤلفاته باللاتينية، إلا أنه ألّف رائعته الديكا ميرون (حوالي 1349-1353م) باللغة الإيطالية. وتُصوّر هذه المجموعة المؤلفة من مائة قصة قصيرة شخصيات ومشاهد العصر بكثير من الواقعية والفكاهة.

استمرت سيطرة الأدب الإنساني المكتوب باللاتينية على الأدب الإيطالي حتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي. وتركز إحياء الأدب باللغات الدارجة في فلورنسا إذ ظهرت مجموعة

رائعة من الكُتَّاب في بلاط الشاعر والسياسي لورنزو دي مديتشي. ومن بين هؤلاء الكُتَّاب برز أنجيلو بوليزيانو الذي مزج التقاليد الكلاسيكية بالدارجة في مؤلفه مقاطع شعرية للمناظرة كما سَخَّر لويجي بولتشي من القصائد البطولية في عصره في ملحمة السَّخرة الثانية مور جانت ماجيور (1478-1483م).

حدث أيضًا نشاط أدبي مهم في أجزاء أخرى من إيطاليا. إذ نظم ماتيو ماريا بولاردو، الذي كان يعمل في بلاط فرارا الشمالي، قصيدة الفروسية غير التامة بعنوان أورلاندو العاشق (1487م). وفي نابولي كتب جاكوبو سانازارو مؤلفه أركايدا (1501-1504م). ضم هذا المؤلف شعرًا رعوياً ونثرًا وأثر على مؤلفين أوروبيين عديدين. ومع أن النزعة الإنسانية استمرت حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، إلا أن أهمية الأدب المكتوب باللغة الدارجة ازدادت باطراد. واعتُبر كتاب نيقولو مكيافيلي الأمير (كُتب عام 1513م طبع عام 1532م) أحد أشهر المؤلفات العالمية في العلوم السياسية. وهناك عمل مهم آخر لهذه الفترة هو أورلاندو فيوريوسو للكاتب لودوفيكو أريوستو (1516م)، (روجع عام 1521م وعام 1532م). ولربما كانت هذه القصيدة أعظم ما كُتِب من قصائد في الفروسية. وهي في حبيكتها استمرار لأورلندو أناموراتو للشاعر بوياردو، إلا أنها مليئة بالسَّخرية وعلى شكل حوار. يصف بالداساري كاستيليون في مؤلفه كتاب رجل البلاط (1518م، نشر عام 1528م) المثل الأعلى لرجل البلاط المهذب والجمال الروحي.

وخلال أوائل القرن السادس عشر الميلادي بدأ الكُتَّاب الإيطاليون ينسجون لغتهم على منوال لغة بتارك وبوكاتشيو. وقد حدث هذا التطوُّر بشكل رئيسي بسبب المؤلفات الخلاقة والنظرية لبيتر وبمبو. وأصبح شعر بتارك النموذج الذي احتذته قصائد عديدة في الحب الروحي.

وفي حوالي منتصف القرن السادس عشر الميلادي أحدثت حركة تجديدية في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية عُرفت باسم

الإصلاح المضاد تغييرات في الفنون. انظر: الإصلاح المضاد، فقد حلّ الاهتمام بالمظاهر الشكلية المبالغ فيها محل الانسجام الذي هو المثل الأعلى للنهضة، ونجم عن ذلك أسلوب عُرف باسم الأسلوب التكلفى وأدّى إحياء كتاب الشعر لأرسطوطاليس، الفيلسوف الإغريقي القديم، إلى فتح نقاش حول طبيعة الأدب. وهذا النقاش أمدّ النقد الأدبي الحديث بقاعدته وبفكرته القائلة إن الفن تقليد للواقع. وقد تطوّرت المسرحية الإيطالية أيضاً خلال القرن السادس عشر وبشكل خاص ما عُرفَ باسم الكوميديا ديل آرت وهى كوميديا مبنية على الارتجال.

فترة الباروك وعصر العقل

في حوالي القرن السابع عشر الميلادي كانت الأوضاع الدينية والسياسية في إيطاليا عاملاً مساعداً تسبب في انحطاط الأدب فيها، إذ حاولت أسبانيا وفرنسا السيطرة على إيطاليا. وظهرت الأزمة بوضوح في فترة الباروك في القرن السابع عشر الميلادي، وهي الفترة التي خسرت فيها إيطاليا قيادتها الثقافية لأوروبا. ومع ذلك كُتبت بعض الروائع الأدبية مثل قصيدة جيامبا تيسستا مارينو الأسطورية الطويلة بعنوان أدونيس (1623م). ومن نتاج فترة الباروك أيضاً النثر الواضح والعلمي الذي كتبه جاليليو، وكتاب مدينة الشمس للكاتب توماسو كمبانيلا (1623م) الذي يصف فيه المؤلف مجتمعاً مثاليّاً يحكمه كاهن فيلسوف.

حدثت نهضة أدبية خلال فترة معينة في القرن الثامن عشر الميلادي سميت عصر العقل. ففي الشعر تصارع أسلوب أسهل وأقل تعقيداً يُعرف بأركاديا مع الأسلوب الباروكي الأكثر تعقيداً. فقد كيّف بيترو متاستاسيو مواضيع كلاسيكية لتلائم الذوق الدارج وذلك في الكلمات التي كتبها للأوبرا. واستبدل كارلو جولدوني الكوميديا دل آرت بمسرحيات مُؤلفة تماماً. وقد صوّر الطبقات المتوسطة في مؤلفات كثيرة. وأعاد فيتوريو ألفييري المأساة الكلاسيكية في صول (1782م) وغيرها. وكتب سيزار بكاريا مؤلفه حول الجريمة والعقاب (1764م) وفيه يهاجم بشدة التعذيب

وعقوبة الإعدام، وهاجمت قصيدة جوسيب باريني الناقصة بعنوان اليوم (1763-1765م) الطريقة الفارغة التي يمضى بها النبلاء أيامهم.

وفي نهاية القرن الثامن عشر أدت رغبة خلق التوازن بين العقل والتقليد إلى تطوّر الكلاسيكية الجديدة (الكلاسيكية المحدثه). وكان كاتبها الرئيسي هويوجو فوسكولو.

الرومانسية

كانت الرومانسية حركة رفعت العاطفة فوق العقل، والتاريخ القومي فوق الأساطير، والفردية فوق العالمية. وقد اعتنق الكتاب الإيطاليون الحركة الرومانسية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، وتزامنت الحركة مع بعض أفكار الحركة الوطنية التي أدت إلى توحيد إيطاليا سياسيًا والتحرّر من السيطرة الأجنبية والتي أطلق عليها بالإيطالية اسم ريزورجيمنتو. وكانت رواية المخطوب (1827- 1842-1840م) للكاتب أليساندور مانزوني، أكبر كتّاب إيطالي رومانسي، أول رواية إيطالية تاريخية تمجّد القيم الدينية كالعدل، والعون الإلهي. وكانت المسرحيات المأساوية التي كتبها مانزوني مثل كونت كارماجنوولا (1820م) وأدلشي (1822م) أول مسرحيات تتحرر من المبادئ الكلاسيكية. وقد كتب أحد أكبر شعراء هذه الفترة وهو جياكومو ليوباردي مؤلفًا بعنوان أغان (1836م) وتعبّر هذه القصائد عن نظرة شديدة التشاؤم نحو الطبيعة الإنسانية.

وقد صحب عملية توحيد إيطاليا عام 1870م عدم استقرار اجتماعي واضطراب سياسي. وتركّزت الاستجابات الأدبية للوضع إما في الحنين إلى أمجاد إيطاليا الغابرة أو في محاولة جعل إيطاليا الجديدة أمرًا مفهومًا. وجاءت أول استجابة من الشاعر جيوسو كاردوشي إذ أبدى احتقارًا للمبالغات العاطفية الرومانسية. وبدلاً من ذلك فضّل تمجيدًا كلاسيكيًا للقيم الوطنية. وجاءت الاستجابة الثانية على شكل حركة واقعية في الرواية عُرفت في إيطاليا باسم فاريسمو. وقد وُصف أعضاء هذه الحركة، بما

أمكن من موضوعية، حياة وعاطفة الفقراء والمهاجرين. وقد صوّر جيوفاني فيرجا، أبرز كُتّاب هذه الحركة، الفلاحين وصائدي السمك الصقليين في رواية البيت المحاذي لشجرة المَشْمَلَة (1881م) كما سار جابريلي دي أنونيزو على نهج كاردوتشي في تمجيد القيم التاريخية. ونظم جيوفاني ماسكولي شعراً ذا صدىً صوفيٍّ أثر في الكثير من الشعر اللاحق.

القرن العشرون

تأثر الأدب الإيطالي في أوائل القرن العشرين بحركة تدعى المستقبلية. وقد كتب فيلبوتوماسو مارينتي بيان المستقبلية (1909م). ودعا هذا البيان إلى استعمال اللغة والمجاز المناسب لتمجيد سرعة عصر الآلة وعنفه. وكتب لويجي بيرانديللو روايات ومسرحيات ركزت على مواضيع مثل الهوية الشخصية وعبث الواقع. وتبرز هذه المواضيع في روايات إيتال سفيفو. وتظهر المواضيع نفسها مقرونة بالتشاؤم الفلسفي في مؤلفات الشعراء يوجينيو مونتال، الشاعر الإيطالي البارز في القرن العشرين الميلادي، وسالفاتوري كواسيمودو وجوسيب أونجاريتي.

ولمدة عشرين سنة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام 1945م حاول الكتاب الإيطاليون إعادة تنظيم أدب البلاد حسب أسلوب واقعي عرف بالواقعية الجديدة. وكان ألبرتو مورافيا رائد مؤلفي فترة ما بعد الحرب، وقد ضمت هذه المجموعة من الكُتّاب روائيين أمثال سيزار بافيس وفاسكو براتوليني وإليوفيتوريني.

وفي فترة لاحقة أجرى الكُتّاب الإيطاليون الكثير من التجارب. ومن بين هؤلاء الكُتّاب الروائي إميليو جادا والشاعر بيير باولو باسوليني. وهناك مؤلفون آخرون مهمون في أواخر القرن العشرين مثل الروائي إيتالو كالفينو والكاتب المسرحي داريو فو الذي حاز جائزة نوبل في الأدب عام 1997م.

محمد حامد

الرواية في بونتاسياف!

لوسيو دامبرا

(1)

في ذلك المساء بعد تناول الطعام، كانوا يتحدثون في شرفة (الفيللا) عن الشهرة، وكان رئيس الأركستر (فينيزياني) يلقي بسمعه في الحديث، وعلى ثغره ابتسامة حائرة، يترأى فيها التهمك واضحاً جلياً، وبعد صمت عميق، قال:

- الشهرة... أوه! اسمعوا إذن هذه القصة. ليس بينكم من لا يعرف (سيريني) المؤلف الشاب، المؤلف المسرحي الشهير. وقد أذكراني سافرت معه من روما إلى فلورنسا بالقطار، فأيقظنا عند الفجر، صوت عامل يصيح: (بونتاسياف. بونتاسياف) ناحية كسائر النواحي، بل هي محطة عادية، تبعد عن فلورنسا بضعة كيلومترات، وليس فيها ما يستوقف المسافرين أو يلفت أنظارهم، ولكن الأدباء يا سادة ليسوا كغيرهم من المسافرين.

- صرخ (سيريني) بونتاسياف! - ياله من أسم جميل!... إنه منتهى الرقة والعدوبة والطرافة! إنه ليبدو لي كل الروعة!

ولقد شعرت عند سماعه الشعور الذي أحسه، لو حدثوني عن حديقة (بوبولي) أو جسر (كرايا)!!

ووراء (بونتاسياف) هذه، لستُ ألس مدينة فلورنسا بل فيورنزا التاريخية، التي أتخيلها بتلك الحديقة (الميديسية) وقد زخرت بنساء النهضة الفاتنات. وأكاد أسمع في أعماق نفسي تلك الأنغام الشجية التي كانت تعرف بها قصائد (بوليثيان) الرائقة.

(بونتاسياف)!! أشاعر أنت بالجمال السحري الذي يغمر هذا الاسم؟ سأؤمها، سأؤمها، لأنني أحبها كما يجب أن تحب، دون أن

أعلم لماذا!!

والمصادفات التي تخدم صرعى الغرام، أبت ألا تحقق أمنية عاشق (بونتاسياف) فلم تمض أسابيع، حتى اضطرتته إلى الوقوف في ساحتها الكبرى (الوحيدة) أثناء سفره بالسيارة من فينيسيا إلى روما، لأن البنزين، كان قد نفذ حتى آخر قطرة.

ذهب السائق يبحث عن القليل من هذا السائل الثمين، وأخذ (سيريني) يطوف هذه القرية، فأتى طوافها في وقت قصير.

وفي الواقع (وهذا ما يدلنا دلالة واضحة على أن أحلامنا بعيدة كل البعد عن الحقيقة!) لم تقع أبصار (سيريني) على ما يذكره بحديقة (ميدسيس) أو شعر (بوليثيان)!

وداعاً أيها الحلم المعسول! حلم (ميدسيس) وقد زخرت بحسان النهضة الفاتنات!.. ليس في (بونتاسياف) كلها أثر للخضرة بله المروج.

وداعاً أيها الأصدقاء الشجية، التي تردد أنغام قصائد (بوليثيان) الرائعة، ليس في (بونتاسياف) الغارقة في قيلولتها الصيفية غير نغمة واحدة: بكاء طفل، متواصل، ملح، مزعج يبعث على السأم والضجر، تنفجر قنابله من حانوت صغير في مؤخر قهوة القرية الحقيبة.

وهذه القهوة، دخلها (سيريني)، ليدخن بضع لفائف، ويكتب عدداً من البطاقات البريدية إلى أصدقائه، فلما أتم ذلك كان الملل قد أَسْتَبَدَّ به، واستولى ولم يرقه قط أن يبصر السائق يعود في هذه اللحظة ويداه فارغتان. إن العثور على لتر من إكسير الحياة لأسهل بكثير من إيجاد قطرة بنزين في هذه القرية المتواضعة!.. والحاجة كالقانون، تملئ إرادتها إملاء وتفرض مشيئتها فرضاً لا بد من إيجاد قليل من البنزين، مهما كلف الأمر، فليعد السائق، وليبحث عن هذا السائل الثمين.

يضجر (سيريني!) فيترك سيارته تنعم في ظل بيت صغير، هو أجمل البيوت، ويخرج إلى الساحة الكبرى حيث الشمس تذهب كل ما فيها وتلهبه، ويعود بعد قليل إلى سيارته ففيها على الأقل

يستطيع أن يأخذ نصيبه من الراحة، فليتمدد فيها، وليرغم نفسه على أن ترضى بما لا تريد، وليتغنى بقطعة شعرية للشاعر (بوليثيان) ولهمدئ من حركاته لعل الرقاد يلي نداءه.

وأنه كذلك، وإذا مصراع نافذة فوق رأسه يفتح، وتطل عليه مخلوقة فاتنة... تقابلت نظراتهما، فأحدثت في كل منهما ما تحدثه عادة، نظرات الرجل في المرأة والمرأة في الرجل.. وأخذت العيون تبحث عن العيون من طرف خفي حتى إذا تقابلت ازورت، وإذا ازورت تقابلت.. وهكذا تم التعارف بينهما ولم يشاهد أحدهما الآخر قبل هذه الساعة.

وتخاطبت الأبصار بلغة سحرية، دون أن تتظاهربأنها تتخاطب، وتفاهمت، دون أن تتظاهربأنها تتفاهم واليكم ما قالت عيون المرأة للشاعر:

- أنت لطيف جداً! يا سيدي! أنت شاب أنيق جذاب من طبقة يندر أن ترى في ساحة (بونتاسياف) الكبرى... وبعد دقائق معدودات. يا سيدي الفتان. سيوافيك الشخص الذي تنتظره ولعله امرأة جميلة ترافقك في السفر. أوتفرمعك!

وإذ ذاك. يزأرمحرك السيارة. حيث يلتوي الطريق ستختفي إلى الأبد. أيها الحلم الجميل! ستختفي وأنت من تلك الطبقة التي لا تتسنى لنا مشاهدتها أكثر من دقائق قليلة خلال شقائنا الدائم ونحن بنات الريف التعسات اللواتي قضى عليهن أن يخلقن في الريف، وأن يتزوجن في الريف وأن يقضين الحياة في الريف خاضعات (لأمانة) يرتضيها على غير إرادة منهن.

... أيها الشاب جذاب، الذي سيختفي بعد بضع دقائق! إنه ليلذ لي كثيراً، من هذه النافذة أن أتصل بك! والاتصال بك خطيئة النساء اللواتي على شاكلتي...!!!

وقد انبرت لحاظ الشاعر تجيها:

- (أنت جميلة أيتها المجهولة الفاتنة! أنت جميلة بعينيك البراقتين، وشعرك المسدول! أنت جميلة بهذه الجدائل المجددة على الطريقة القديمة، وهذا الثوب الأسود الذي ترتدينه أملس

مصقول إلى درجة تسمح برؤية النقط البارزة في جسمك البض.
وهذه الدانتيل التي تماشي هذا الصقل وتحده، في غاية الأناقة
والظرف!

وهنا، في هذه النافذة التي تخفي من جسمك الغض ما تخفي،
وتظهر ما تظهر، تتراءين في وسط الهالة المظلمة التي تكتنفك،
في جمال تمثال، من تماثيل 1859، كأنك آلهة من آلهة العصور
القديمة، بهذه الزينة التي لا يعرفها عصرنا، عصر الفساتين
القصيرة، وعصر الفوكس - تروت!

لقد أضاع عصرنا ذلك الجمال البالغ!

وكم تروقين لي، أنا الشاعر المفتون، أيتها السيدة الحسناء! إنك
لتملكين ما تجملين به (بوناسياف) أكثر من كل صورته لي مخيلتي!!
وإن لك وأنت تتظاهرين بعدم النظر إلي، بينما أنت لا تنظرين
إلا إليّ إن لك وأنت تتصنعين التحديق في الأفق البعيد، بينما أفقك
الواسع ينحصر في المساحة الصغيرة التي تشغلها سيارتي، إن
لك ابتسامة حزينة تفرعها شفتاك الرقيقتان اللتان لم تشعرأ
بلذعة القبل الملتهبة ولم تتمتما بالجمال المغرية!

أيتها الريفية الحزينة التي زوجت منذ عشرة أعوام بمن لا
تريد: بشيخ البلد! بالطيب! بكاتب العدل! - أيتها المرأة الشقية
التي ترتضي أن تقضى في هذا المنزل قبل أن تعرف الحياة، والتي
ترتضي أن تخنق في مهبها الأحلام المعسولة التي يسرح في عوالمها
قلبها الخفاق، وتحلق في أجوائها مخيلتها الوثابة، بعد أن رضعت
الخيال من القصص والروايات.

أيتها الريفية الحزينة، التي تستطيع أن تجد الحب في جميع
الكتب، ولا تتصور أنها تستطيع أن تجده في غير المدين! أيتها الريفية
الحزينة التي تتحسر على ألا تفهم من الحياة غير واجبات الزوجية،
وعواطف الأمومة والتي تتحدد آمالها كل يوم، وفي مثل هذه
الساعة. عند غروب الشمس!

أيتها الريفية الحزينة التي تبحث من فتحة هذه النافذة عن
قليل من الهواء، وقليل من الفضاء، وعن قطعة من السماء،

تبصر فيها النجم يشعل زهرته المتألئة!

أي مدام (بوفاري) أي حرقه تعتلج في صدرك عندما تدركين أن
الأسفار الجميلة التي تحلمين بها، لن تتحقق منها غير هذه الوقفة
الكئيبة التي تقفينها كل يوم، عند هذه النافذة! أي مدام (بوفاري)
(بونتاسياف)! ما أروع حب الاستطلاع الذي تنم عنه عيناك!
عيناك اللتان تنظران إلي، دون أن تتظاهرا بالنظر إلي! عيناك
اللتان تتكلفان البحث في البعد عما لا أدري وهما لا تبحثان في
الحقيقة إلا عني، أنا الجالس في هذه السيارة التي جاءت من حيث
لا تدرين، والتي تتأهب لأن تذهب

إلى حيث لا تدرين! أه! لو كان يستطيع رجل مثلي أن يقف هنا،
أولوكنت تستطيعين أن تنزلي إليه وتركي إلى جانبه في هذه السيارة
وأن تختفي معه هنالك حيث يلتوي الطريق عند تلك النقطة التي
تمثل حد العالم الذي أذن لك أن تعرفيه حتى اليوم!
أه لو كنت تستطيعين أن تذهبي معه. وألا تعودني بعد اليوم...!

(2)

هكذا تناجت منهما العيون، وقد طالت بينهما المناجاة لأن
البزوين كان ما يبرح صعباً إيجاده، حتى في ضواحي (بونتاسياف)،
وسيريني الذي بلغ من الشهرة حداً قصياً، واعتاد أن يعرفه الناس
في كل مكان، طفق يحدث نفسه يقول: لا شك إنها عرفتني، لأن
رسمي كثيراً ما ينشر في الصحف والمجلات، وهذه نظراتها التي لا
ترفعها عني تدل بوضوح على إنها تعرف من أنا!.. وهي مهما كانت
(بوفارية) لا يمكن أن تنظر بهذا الشكل إلى رجل عادي، يمر في
طريقه بنافذتها!

ولا بد أن تكون قرأت لي، وقرأت لي كثيراً لأن ساعات الفراغ في
الريف أطول منها في المدن، وإذن فللنساء وقت كاف فوق الكفاية،
لأن يلتهمن الكتب مكاتب، مكاتب!! وما دامت فلورانسا على قيد
خطوتين من (بونتاسياف) فمما لا ريب فيه إنها ذهبت إلى مساح

التمثيل وأبصرت بعض رواياتي تمثل فيها، وربما رأيتني عندما يستدعيني المتفرجون إلى المسرح لأحييه ويحييني بين عاصفة من التصفيق والهتاف! وفي هذه اللحظة ظهرت في النافذة امرأة مسنة، أحاطت بوجهها هالة من الشعر الأبيض. فنظر إليها (مارك سيريني) وأستأنف حديثه مع نفسه: من المؤكد إن هذه المرأة أمها فهي تشبهها كل الشبه، وهذه أبنيتها تسرفي أذنبا وأنا واثق إنها تقول لها: (أترين هذا الرجل هو مارك سيريني) الكاتب المسرحي الشهير!! . أجل، لاشك إنها قالت لها ذلك أو شيئاً يماثلها، لأن الأم أيضاً أخذت تنظر إلي ولا ترفع بصرها عني!! انظرا إلي!! انظرا إلي!! أيتها السيدتان العزيزتان ترى هل أروق في أنظاركما؟

انظرا إلي ولا تغضا الطرف عني حياء (وخجلا) فقد فرض على أصحاب الشهرة أن يتمتع الناس أنظارهم بهم!!

اختفت الأم، ولكنها لم تلبث أن عادت، وفي يدها مجلة عرف من جلدها الأزرق إنها مجلة (الليستراسيون) وفتحت الأم المجلة على حافة النافذة وأشارت بيدها إلى صفحة فيها، تلفت أنظرا أبنيتها إليها، ثم عادت إلى التحديق في الشاعر: (لاشك إنهما تقابلان بين رسمي المنشور في المجلة وبين وجهي... أجل أيتها السيدتان أنا هو (مارك سيريني) لهما ودماً. أنا هو (مارك سيريني) الذي لم يك ليخطر له أن من الممكن أن تضطره المصادفات للوقوف في (بونتاسيف)... أنا هو (مارك سيريني) الذي سيرحل بعد قليل، ولكن بعد أن يكون قد ترك قلبه في هذه النافذة، لأنه شاعر، والشاعر مجنون، وهو هو هذا الجنون الذي أطبق عليه، وجعله مفتوناً بك أيتها المجهولة المغرية، إلى حد الوله!!

وله... وأكثر من ذلك أيضاً!

هكذا في طرفة عين... هكذا في طرفة عين!

ولقد استحال عدم اصطباره إلى شيء آخر، حتى إنه لم يستطع أن يخفي استياءه، عندما أبصر السائق يعود بعد أفول الشمس، وفي يده وعاء فيه قليل من البنزين، حصل عليه بأعجوبة من سائق أستوقفه على قارعة الطريق.

وأخذ (سيريني) يحدث نفسه: (لماذا وجدت البنزين أيها الأبله!). ألم تحدثك نفسك أن سيدك أمسى لا يرغب في الابتعاد عن هذا المكان؟ وإنه هنا وتحت هذه النافذة يمتع نفسه بالنظر إلى عيون حسناء مغرية؟ لقد كان خيراً له أن تعود فارغ اليدين ما دام قلبه قد امتلأ!!).

ولكن السائق الذي لم يك نبيا ولا يمت إلى نبي بصلة النبوة ولا صاحب كرامة تسمح له أن يشعر من مسافة ثلاثة كيلومترات أن سيده صار فجأة لا يرغب في البنزين لم يفهم التأييب الخفي الذي يسدده إليه سيده لأنه بذل أكثر مما في وسعه حتى حصل على الوسيلة التي ستمكنه ان يرقد براحة وهدوء في سريره الوثير بروما!

علام هذا الصمت...؟ ما باله لا يتكلم والشمس توارت، والليل جن؟

أشعل الضوء في غرفة المجهولة الحسناء، فلم يعد في الإمكان تمييز وجهها الجذاب وعينها الدعجاوين وغدا شبحها يتراءى أغبر قاتما وهذا الشبح لم يك أقل جمالا من وجهها وعينها فهذا رأسها قد اتكأ على ساعديها بهيئة جميلة.

تهياً كل شيء وأشعلت الفئارات!.. فوا أسفاه على الزمن الماضي زمن الفئارات التي تضاء بالاسبتلين! ذلك الزمن الذي كان يضيع الإنسان فيه وقتاً طويلاً ليجد ما يلزمه من ماء وكارببر! فلا يحصل على ما يريد إلا بعد الغضب والصخب.. ولكن المرء إذا كان عاشقا ولا سيما إذا كان يرغب عن السفر فان الفئارات القديمة تستطيع أن تؤدي له خدمات عظيمة.

وداعا أيها الحلم المعسول!

أخذت السيارة تجاروا وأخذت تعدو وأخذت تبتعد وما زالت تجار وتعدو وتبتعد حتى اختفت عند النقطة التي يلتوي فيها الطريق.

ترى هل يعود إلى (بونتاسيف)؟

فابتسم (سيريني)... لن يعدم سبباً للعودة...

لم يعد في الحال، ولكنه عاد!!!
كان للشاعر في أحد أدراج مكتبه بروما رواية لم يتم منها إلا
بضعة مشاهد. وهو مؤلف نشيط خصب الإنتاج سريع العمل إلى
حد يفوق التصور. ولا شك ان هذه الصفات تبلغ حدها الأسى
إذا كان الحب يلهب منه الدماء ويسعر في قلبه الضرام...
وكان إذا اخذوا عليه حبه، لا يتردد في الإجابة: (يخفف المغرمون
عن أنفسهم بالتهند، أما أنا فبالكتابة!.. أحصوا أحصوا رواياتي
تجدوا كل رواية بامرأة...)

ولما لم يكن للرواية الأخيرة امرأة. فإن تقدمها كان بطيئاً جداً..
أما الآن وقد غدا وجه تلك الريفية الحسناء لا يفارق مخيلته فإن
الشاعر اكتشف الينبوع الذي يستمد منه وحيه وإلهامه، وفي وقت
أقل من القليل، أتم الرواية، ونقلها وقرأها لأصدقائه المخلصين.
وراحت الصحف، تعلن عنها بحروف بارزة، أنها اعظم حادث
مسرحي، لذلك الموسم.

وما كاد يذاع هذا النبأ الخطير، حتى هرع إلى (سيريني) عدد
كبير من رؤساء فرق التمثيل، وعرضوا عليه مسارح روما، وميلانو
وتوران ونابل لتقوم أشهر الفرق بتمثيلها للمرة الأولى. وكان بين
المتسابقين ممثل فرنسي شهير، حاول ان يحتكر تمثيل هذه
الرواية الرائعة لفرقته، ولم يطلب لذلك أكثر من المدة التي تكفي
للت ترجمة، وقد بذل جهوداً عظيمة لينيل باريس شرف تمثيلها لأول
مرة، ولكنه لم يفلح.

وتقدم رؤساء آخرون يعرضون مسارح برلين وفيينا ولندن لأن
(سيريني) كانت له شهرة اوروبية لا تقف عند حد، وقد سرت عدوى
هذه الحميا إلى إحدى صاحبات العروش، فأسرعت إلى عرض
مسرح البلاط الملكي!

أما الشاعر فقد كان يلزم الصمت، ولا يجيب بحرف، وكل
ما فعله أنه أوعز إلى سكرتيه الخاص بتسجيل أسماء المدن التي

تعرض عليه. وتجمع عليه أصدقاؤه وأحفوا عليه في السؤال:
- أي المدن اخترت؟ .. روما؟ ميلانو؟ فلورنسا؟ توران؟ نابلي؟
كان (سيريني) لا ينبس ببنت شفة، وإنما كان يجيهم بهزة رأس
تدل على النفي كل الدلالة!

- إذن. هل اخترت مدينة أجنبية؟ باريس؟ برلين؟ فينا؟ لندن.
ولكن الشاعر لبث صامتا، رأسه وحده كان يتكلم!

- فانفجر أحد أصدقائه وقال: إذن.. إذن أين؟؟

- هل اخترت مسرح (الماريونيت)؟ .. مسرح (الفينيول)؟
أخذ (سيريني) يبتسم بوداعة وسكينة.. وأخيراً أجاب:

- ستمثل روائي لأول مرة في (بونتاسياف)!!

في (بونتاسياف)؟؟

دهش الجميع، وطفقوا يحتجون في غير هدوء ولا سكون، أما
(سيريني) فانه لبث يبتسم ابتسامته الغامضة ويعيد في غير ملل:

- قلت لكم في (بونتاسياف)!!! .. كفى!!!

ولم يستطع أحد بعد ذلك أن يستدرجه إلى قول جملة غير هذا،
فتسارع أصحاب المسارح ورؤساء الفرق والممثلون وسفراء الملكات
إلى داره ليروا: أمانح هو أم جاد؟ أم اعتراه جنون مزاح؟ .. كلا!
. إن (سيريني) وهو جالس إلى منضدته يعيد بدون ملل: (ستمثل
روائي لأول مرة في بونتاسياف)! وقد زاد على ما تقدم: (هاهي
مستريحة في هذا الدرج، على غاية ما ترون من الصحة، ولم يصف
لها أي طبيب تبديل الهواء اللهم إلا إذا كان هواء بونتاسياف).

فأخذ بعضهم ينظر في وجوه بعض والدهشة ترفع من عيونهم
الحواجب، وتقطب الجبهات، وشرعوا يتساءلون عن سبب هذا
العناد، فاختلفت آراؤهم وتضاربت، ولكن أحداً منهم لم يستطع
إدراك الحقيقة.

وقد أسرع رؤساء شركات التمثيل بالرجوع إلى القطار لأنه لم
يك بينهم من يفكر في (بونتاسياف) عادوا مخفقين وأكثرهم كان
قد تعاقد سلفاً على تمثيلها في أشهر المدن وأكبر العواصم! ولكن
تمثيل رواية جديدة، للمؤلف المسرحي الشهير (مارك سيريني)

عملية رابحة، تدر الذهب الكثير فهل يتركها الجميع؟ كلا لقد قبل أحدهم (وكان أمريكياً) أن يمثلها لأول مرة في (بونتاسياف) لأنه بحساب أمريكي، رأى أن هذه العملية ستدر عليه أرباحاً أمريكية أيضاً. وهكذا تعاهد مع المؤلف ووقع الاتفاق، ولما كانت شركات التمثيل المنظمة لا تستطيع أن تذهب بممثلها إلى (بونتاسياف) حيث لا عمل لهم، فقد وعد أن يبيئ في ثمانية أيام، فرقة خاصة لتقوم بتمثيلها ثلاث ليال متواليات. . . وبعد ستة شهور يمنح امتياز الرواية للفرق العادية لتمثيلها في كبريات المدن وأمهات العواصم.

وفعلا، لم تمض ثمانية أيام حتى كانت الغرفة قد أعدت! وهذا الحادث العظيم، هذا الحادث الغريب، حادث إصرار (مارك سيريني) على أن تمثل روايته الحديثة ولأول مرة، في قرية حقيرة لا يتجاوز عدد سكانها الخمسة آلاف نسمة، هذا الحادث الذي لا يصدق، أثارت الصحافة حوله ضجة كبرى، اقتحمت حدود إيطاليا وأقلقت صحافة أوروبا بأسرها. ولقد كانت هذه القضية رنانة كسائر قضايا (مارك سيريني) ورنانة أيضاً كانت عودة رئيس الشركة الأمريكية من (بونتاسياف) إلى (الستيديو)، حيث كان المؤلف، وسيجارته في فمه، ممتداً على أريكة وثيرة، يفكر بسيدة النافذة الشهية!!!

- كل شيء الا هذا!... لقد ذهبت أتعابنا أدراج الرياح: أني أعود من (بونتاسياف) إذ ليس فيها مسرح!!!
- ليس فيها مسرح؟ هذا أمر عديم الأهمية: إن بناء مسرح لا يستغرق أكثر من شهر، وهو الوقت اللازم للحفظ والمراجعات.
- ماذا؟؟... بناء مسرح جديد؟... وفي ظروف شهر واحد؟؟ لم يتحرك (سيريني)... نظر إلى طاولة عليها رزنامة من المعدن اللامع.
وقال:

- أجل، في شهر واحد!... نحن الآن في سبتمبر، ولن يزال البرد شديداً حتى في أكتوبر في هذه البلاد... وبعد، فإن بناء مسرح خشبي يتسع لألفين شخص، لا يمكن أن يستغرق أكثر من ثلاثة

أسابيع.

- وتزيينه؟. . . وتنميقة؟. . . في ثلاثة أسابيع؟ لن يكون هذا المسرح سوى بركة....

هنا انتفض (سيريني) وأجاب بلهجة قاسية:

- لن يتسابق الناس لمشاهدة المسرح، بل لمشاهدة روايتي!!!

(4)

لنختصر: لم ينتجع وسيلة لحمله على تغيير رأيه، ولو كان رئيس الشركة التي تعاقده إيطاليا، لترك الأرباح التي قد تنجم عن هذا الاتفاق، ولترك المؤلف يسد في عناده وجنونه، ولكنه كان أمريكياً، وللأمريكيين عقل خاص، وتفكير خاص يميزانهم عن غيرهم. ولم يمض شهر، حتى كان كل شيء قد تم: حفظت الرواية وروجعت وأقيم المسرح في بقعة جميلة. أما ما جرى في (بونتاسياف) في ذلك الوقت، فأمر لا يستطاع تصويره أو وصفه، ولا شك أن بينكم أناساً وجدوا فيها، في ذلك الحين، وهؤلاء وحدهم يستطيعون أن يذكروا كيف احتلت الغرف المعدة للإيجار احتلالاً لا يفرق عن الاحتلال العسكري بشيء، وكيف أن الجموع الغفيرة تسابقت إلى فلورانس وإلى (اريزو) لتبحث لها عن مبيت، وكيف أنها عادت إلى (بونتاسياف) لتحضر تمثيل الرواية، وتعود بعد منتصف الليل إلى إحدى المدينتين المذكورتين. . . ولا شك أنهم يذكرون أيضاً أنه كان بين المتفرجين أناس تقاطروا من أقصى البلاد، بينهم كثير من النقاد المسرحيين، ورؤساء شركات التمثيل الأجنبية. . . . وقد كان بينهم صحفيون اضطروا خدمة للفن أن يبيتوا ليلة كاملة في القطار، وأن يضيعوا يوماً كاملاً في ساحة (بونتاسياف) وأن يمضوا ليلة ثانية متعبة، في دائرة البرق، حيث ظن عامل التلغراف المسكين، إن الساعة اقتربت، وإن القيامة قامت!!!

وليست هذه بالمعركة الأولى التي استبسل فيها (مارك سيريني) بطبعه الهادئ الرزين، ولكنها كانت أشد المعارك كلها وأحماها

وطيساً، لأن تلك الرغبة الشاذة، التي شاءت أن تضطرمحي الفن للمجيء إلى (بونتاسياف) تركت أسوأ الأثر في النفوس، حتى أن القادمين كانوا على أتم استعداد لأن يثأروا لأنفسهم!

وهكذا فانه قبل أن يرفع الستار بساعتين، أسرع أصدقاء (سيريني) إليه، وأخبروه أن الجو مكهرب، وأن عواصف السخط والغضب لن تلبث أن تصدم الرواية صدمة عنيفة، ربما كانت لا تقوى على احتمالها، ولكن المؤلف أجابهم بلهجة حازمة:

- إذا كانت لديهم سهام فليسدودوها! . وإذا كان لديهم قنابل فليقدفوها! . أما أنا ففي غنى عن آرائهم: لا يهمني هذا المساء، غير رأي شخص واحد!

- امرأة؟

- طبعاً! . ومن تريدون أن يكون إذن؟ . وزير؟
ولم يزد على ذلك كلمة لأنه كان يحرص كل الحرص على أن يخلص بسره لنفسه. . . أما الناس فقد ذهبوا في الظن كل مذهب.

(5)

ومع ذلك، ورغم هذا الحرص فانه لم يضمن على به. . من عادة (سيريني) أن يتخلف عن حضور رواياته، عند تمثيلها لأول مرة، ومن عاداته أيضاً أن يدور حول المسرح كما تدور الفراشة حول الضوء، حتى إذا أخذ اللهب بأحد أجنحتها لجأت إلى الهرب فإذا نسيت اللهب وأثره في جسمها عادت تحوم حول الضوء وحول الخطر، و (سيريني) يحاول ان يتظاهر بالهدوء. وأن يتحدث عن أشياء لا مساس لها بالرواية حتى إذا أصابها الإخفاق فقد رزانتة وشرع يصب جام غضبه طيلة الليلة بكاملها على تلك الجموع المافونة التي لا تقدر الفن، ولا تفهمه، ولا تستحق أن تفهمه، ورماها بأقبح الوصمات وأشنعها.

أخذنا نتنزه سوية، ذلك المساء في أزقة القرية التي استحال في ساعة من الزمن إلى ميدان تتزاحم فيه السيارات، ويتكدس بعضها

فوق البعض الآخر. . وكان الشاعر يبتسم، ويطلعني بهدوء على الأسباب التي حدثت به لأن يثير عليه سخط تلك الجموع الغفيرة، وكان يقول لي وهو يضغط على يدي:

- أفهمت؟. . أفهمت؟. . أني إذا كنت أصبرت ألا تمثل روايتي لأول مرة إلا في (بونتاسيف) فلأني أريد أن استثير إعجابها!! . تلك هي الغاية الوحيدة التي أرغب في إدراكها من غرامي الغريب!
- آه! . . لو انك رأيتهما في ذلك اليوم، لصهرك حينها رغم ما أنت عليه من (برود)، وبعد، فأنا لست أعتقد إن بين الذكور، رجالا ينطبق عليهم هذا الوصف، وإنما هم جميعاً في نظري، براكين هادئة. تثيرها مشاهدة امرأة، وتجعلها أشد هياجاً من البراكين الدائمة الإستعار! آه. . لورأيتهما وهي تطل من فتحة النافذة! . . ها ها هي. . . نافذتها!

- كانت نافذتها مغلقة، وهي ذات درفات خضر، وواجهة وردية. . . كانت محكمة الغلق، لا يتسرب من خصاصها أقل بصيص نور، فسر (مارك) لذلك، وقال بلمحة المنتصر:

- لم يبق أحد في داره! . . لقد ذهبت (المدينة) بأسرها لمشاهدة روايتي! . . وهي، هي. . هي في هذه الساعة، هناك، مأخوذة بجمال روايتي وقوتها، تكتسحها موجة الإعجاب التي أردت أن أغلب عليها بها. . . أني اقدم لها فخراً لا يعدله في العالم فخر. . أقدم لها عيداً، بل مهرجاناً لا يحلم به أحد! . . أي سحر؟. . . وأي عيون؟؟؟ آه! . . أني لا أتمنى إلا أن تبادلني الحب هذه الريفية الحسنة، أنا الشاعر المتعب. . أنا الشاعر الفتان، الذي تضايقه النساء، وتطارده. . تلك النساء اللواتي تجملهن المساحيق، وتزينهن (الكريمات) المختلفة. . . تلك النساء الكئيبات، اللواتي يلبسن جوارب بمائتين فرنك فقط. . . تلك النساء الفارغات القلوب، كبطونهن التي لا يملأنها خشية السمنة!!!

إن سيدة النافذة، على نقيض هذا كله: هي بسيطة رشيقة حقيقية الجمال، لها نفس، ولها قلب، ولها مواهب، ولها نباهة ولقد قرأت في عينها ذلك الإعجاب اللامتناهي الذي تخصني به

وتسبغه عليّ!

وأنا موقن أن هذه الحسنة قرأت رواياتي كلها، وأنها أصبحت تعرفها ولكن معرفتها بها لا يجوز أن تقارن بمعرفة صديقاتي المعجبات (باركهن الله) بما وضعت من روايات.. تلك الصديقات اللواتي يتسارعن لمشاهدة رواياتي عندما تعرض للتمثيل لأول مرة، وكأنهن يتسابقن (ليجبرن خاطري).. حتى إذا بدأ التمثيل أخذن في الثرثرة والمغازلة مع عشاقهن في زوايا المقصورات: إنهن لا يتقاطرن على المسرح من أجلي، أو من أجل رواياتي.. كلا!.. بل ليعرضن على الأنظار أثوابهن الحديثة!.

وألقى نظرة أخيرة على درفات النافذة، ثم أخذ يتجه نحو المسرح، كما يتجه الفراش نحو الضوء.

- أني أحبها.. أحبها حتى العبادة!.. ولأجلها وضعت هذه الرواية، وقد وضعتها بعاطفة لم اشعر بمثله من قبل!.. أقسم لك على ذلك!.. تصور... تصور أنك ذات مساء، تبصرين الحضور المرأة الوحيدة التي تحبك وتعجب بك إعجاباً لا يحد بحدود، ولا يقاس بمقياس، تصور ذلك، وقل، ألا تدير (السانفوني) التاسعة إدارة لا تحسن مثلها في كل وقت؟ ألا تخرج منها ما لم يحلم (بتهوفن) نفسه أن يخرج منها؟؟ إذن.. أنا اليوم أحارب هذه الجماهير كلها. من أجلها هي. أنا أحارب باسمها وبجمالها!

إن رواياتي إنما هي معارك، وحروب، وسباقات، إذن فهي لا تبعث على التأثؤب والملل، وإذن فهي لا تدع المتفرجين هادئين ساكنين، بل تحرك ما في نفوسهم من عواطف وميول وتحملهم على التفكير.

ماذا؟. انتصار؟. لم نكد ندرك المسرح، حتى هرع إلينا بعض الأصدقاء.

- انتهى الفصل الثاني منذ قليل: نجاح لا مثيل له!.. انتصار لا يعد له انتصار!.. ولكن أي جمهور في بدء التمثيل؟ جمهور عبوس حذر، إلا أنه لم يلبث أن خفف من حدته بالرغم منه حتى إذا كان التمثيل، لم يتمالك أيديه عن التصفيق وألسنته

عن الهمّاف: وهكذا، لم ينتهي الفصل الأول حتى ثارت عواطف التقدير، وانفجرت قنابل الإعجاب. أما الفصل الثاني، فهو الذي أتم الانتصار وجعل الستار ينزل بين رعود من التصفيق الحاد المتواصل، والهمّاف العالي القاصف!!!.. وقد اضطرت الممثلة (تيريز اندرياني) أكثر من عشر مرات متوالية أن تعود إلى المسرح، لتحية الجماهير المعجبة.

شرع (مارك) يبتعد، وهو ممسك بذراعي:

- وهي؟... هي؟... آه! ليتني أستطيع مشاهدتها! ليتني أستطيع ذلك!... إنها لا شك مسرورة الآن كل السرور بل هي الآن فخورة بهذا الانتصار الذي هو انتصارها!!!

ولكن أنى لي مشاهدتها أثناء التمثيل، والظلام يغشى القاعة كلها؟... خير لنا أن ننتظرها على بضع خطوات من منزلها... وانتظرنا... انتظرنا أكثر من ساعة، وإذا الستار ينزل بين إعصار شديد من الهمّاف والتصفيق، فتسابق أصدقاء (سيريني) إليه، ليؤكدوا له نجاحه، وليقودوه إلى المسرح، لتحية الجماهير، ولكنه أبى أن ينزل على رغبتهم، لم يتحرك، بل لبث يحدق في تلك النافذة، شاحباً كئيئاً!!!

أخذت الجماهير تتدفق، وقصبت جموعها تلك القهوة الحقيمة، التي ربحت في تلك الليلة ما لا يصدق؛ وبعد ساعة من الزمن، طفقت ترفض زرافاتها شيئاً فشيئاً، فأوى من أسعدهم الحظ باستئجار غرف في (بونتاسيا) إلى مضاجعهم، وانطلقت سيارات القسم الآخر تعدو وتتسابق، فلم تلبث القهوة أن أقفلت أبوابها، ولم يبق أحد مستيقظاً، غير جماعة النقاد المسرحيين، الذين كانوا يتهافتون على دائرة البرق، ليبرقوا إلى صحفهم بهذا الانتصار، وبآرائهم فيه.

أما (سيريني) فإنه لبث واقفاً يحدق في تلك النافذة، ولا يرفع بصره إلا عنها، وقد كانت تلوح على وجهه إمارات الكآبة والحزن:

- طالع منكود!!!.. أنا الذي لم يرغب في هذا الانتصار إلا لأتمتع برؤيتها عن طريقه...

ماذا كنا ننتظر بعد تلك الساعة؟ ليس من شك أنها عادت إلى دارها من حيث لم تقع أبصارنا عليها... ليس من شك أنها عادت، ومن وقت غير يسير؛ وأنا كذلك، وإذا (سيريني) يتأكد أن منزل عروس أحلامه، لا باب له من واجهته!!!

طفقنا نبحت عن الباب، فاهتدينا إليه، في زقاق ضيق... لا شك أنها عادت، ولكن... لو كانت عادت، لأبصرنا الضوء من خصاص النوافذ، ولو برهة وجيزة. إلا أنا كنا إذا أمعنا في التفكير قلنا؛ وما يدرينا؟ هل نحن واقفون على هندسة الدار، حتى نعلم إذا كان إشعال النور في إحدى الغرف، لا بد أن يظهر من تلك النوافذ؟ دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، في الكنيسة المجاورة، وكان التعب قد بلغ مني مبلغه، حتى كدت أسقط إلى الأرض إعياء وضعفاً، فشرعت أتوسل إليه أن يعود، ومازلت به حتى أقنعتة بذلك... وهكذا بفضل الله، وبعد سلسلة لا حد لها من التأوهات المحرقة، والتنهيدات الملتهبة، وبعد كثير من الحدس والتخمين، وبعد نواح شبيهه بمراثي أرميا، وبعد أن رسم خططاً ليقوم بتنفيذها في الغد، بعد كل ذلك، أوى (سيريني) إلى فراشه، وهو يزأرويزمجر، وتركني أرقد بسلام؛ وأنا ألعن في نفسي الحب الريفي الذي يحتل قلوب كبار رجال المدن!!!

(6)

وفي الصباح، عند الساعة العاشرة، أحتشد الناس في قهوة القرية الحقيبة. وكان (مارك) قد دعا رهطاً من أصدقائه لتناول الطعام في الهواء الطلق، رغبةً منه في استبقائهم حوله. وكان بين المدعويين الممثلة الشهيرة (تيريز اندرياني) وعدد غير يسير من أصدقائه في فلورانس وروما. وفريق من النقاد المسرحيين. الذين كان الشاعر الرصين، الذي يعرف كيف يدير أعماله لتكون موفقة حتى في اشد أحواله اضطراباً، سيرجعهم بسيارته الخاصة إلى روما. وهنالك طفق اعظم أولئك النقاد مقدرةً، وأبعدهم صيتاً،

ينقد الرواية نقداً وجهاً. مسهباً، ويمتدحها في غير تحفظ ثم أخذ يبين كيف كان يضعها لوعده إليه بتأليفها. ولكنه لم يكد يدرك نقطة التدليل على سداد رأيه ببرهان جليل من علم الجمال حتى تحول عنه (مارك سيريني) ولم يعد يكثر به. وبأروع جملة...

حدث حادثان عظيمان. . . ظهرت عروس أحلامه. ومن ورائها أمها. تخطر وتهادى في ذلك الزقاق الضيق. متجهة نحو الساحة الكبرى. ولم يكد يتميزها تماماً حتى كان أحد أصدقائه الفلورانسيين. قد هرع إلى السيدتين. ورفع قبعته لتحيتهما... وقد لبث يتحد إليهما زهاء عشر دقائق. كاد (سيريني) ينفجر أثناءها. . . وقد انفجر. . . واخذ يطلع الجميع على سره: (هل تريدون أن تعلموا أصررت على أن تمثل رواياتي لأول مرة في (بونتاسيا)؟). . . إذن فاعلموا. إني لم افعل ذلك إلا من أجل هذه السيدة. التي أهيمن بها هيماً جنونياً!).

وبكلمات قليلة أطلعهم على كل شيء. أطلعهم على قصة غرامه منذ وقوف سيارته تحت نافذتها. حتى انتظاره إياها في الليلة السابقة إلى ما بعد منتصف الليل بساعتين!

وكانت ترتفع عبارات الدهشة. والاستغراب. من ههنا وههنا. وكانت ترافقها في بعض الأحيان تعليقات مختلفة متضاربة. ورغم هذا كله ومع إن سيدة النافذة كانت ما تبرح تتحدث إلى (جيورجيني) صديقه الفلورانسي فأنها لم تلتفت إلى جهتنا قط... ولكن لا... لقد جادت علينا بنظرة قصيرة عندما لفت (جيورجيني) نظرها إلينا.

اخذ (سيرين) يلاحظ الأم. كانت تحمل عددا من مجلة (الليستراسيون) وكتاباً للصلاة تحت إبطها. . . وقد فتحت المجلة وارت صديقنا صفحة فيها. لم يملك أن يكتم دهشته على أثر النظر إليها

- هي تريه رسمي بكل تأكيد!... ولكن... لماذا يبدي (جيورجيني) هذه الدهشة.

وفي هذه اللحظة تماماً، هز الفلورانسي يدي السيدتين، ورفع

قبعته لتحيتهما ووداعهما، واتجهت السيدتان، دون أن تلتفتا إلى جهتنا نحو الكنيسة...

وعاد (جيورجيني) إلينا مسرعا، ولكن (مارك) كان قد أسرع لمقابلته، وسؤاله:

- من هي؟؟؟

- مدام (ازوري)... عرفتُها وهي طفلة في مدينة فلورنسا

- وماذا قالت لك؟

- لم تقل لي شيئا ذا أهمية!!!

- إذا لماذا نظرت إلي؟

- لم تنظر إليك قط!!!

...إني أؤكد لك إنها نظرت إلي...

قال مارك ذلك. واحتد... فذكر (جيورجيني)، وبعد مدة - ها... ربما كان ذلك عندما سألتهما إذا كانتا ترغبان في التعرف إلى (مارك سيريني)...

- وهي... ماذا... ماذا قالت؟

- لم تقل شيئا!!!

- كيف لم تقل شيئا؟... هذا محال... تكلم!... تكلم!... تكلم!...

- إني أستمحك عذرا يا (سيريني) من اطلاعك على جوابها!..

إني لا أجد في نفسي الجرأة الكافية لذلك!!!... إني لا يسرني أن أسمعك ما لا يسرك!!!!

- قل!!!... قل!!!... قل وإلا سحقتك!!!

أما نحن، فقد كنا في غاية الدهشة، والاستغراب... و (جيورجيني) المسكين لم يك يفهم سببا لهماج الشاعر وثورته، وكان كلما شدّد المؤلف عليه النكير، أزداد هو جموداً واضطراباً - قلت لهما: هل ترغبان في التعرف إلى (مارك سيريني)... هذا

هو!... فنظرنا إليك... ولكن... بعد ذلك..

- ماذا بعد ذلك؟؟؟... قل... تكلم..

- وبعد ذلك... وبعد ذلك سألتني...

- ماذا سألتك؟

- سألتني... سألتني: ومن هو (مارك سيريني)؟

يا للصاعقة!!!

كان (سيريني) واقفاً، فهوى على كرسيه متهالكا، ثم قال بصوت ضعيف:

- وأنت، ماذا أجبتها؟

- لم أجبها بشيء... فقد تذكرت وقالت: (آه... أجل... أليس هو (مارك سيريني) مؤلف الأوبرا التي مثلوها مساء البارحة؟) - (الأوبرا)!!!... (الأوبرا)!!!...

- إن التعبير غريب، أليس يسمون كذلك؟ ولكن ينبغي أن نتلمس لها عذراً، لأنها ريفية. وسكان الريف يسمون كل شيء يمثل في لغتهم (أوبرا)...

- ولكن... قل لي... (استطرد (سيريني) بصوت يكاد لا يسمع).
.. قل لي، هل ذهبت على الأقل لمشاهدة (الأوبرا)؟

- كلا!!! لم تحظر التمثيل... لقد سألتها ذلك... لم تحضره لان زوجها مسافر... ومن جهة ثانية ليس لها رغبة في مشاهدة الروايات التمثيلية. إذ لديها ما يشغلها عن ذلك من الأعمال البيتية... لقد اعترفت لي بذلك... وقد أصبح لها ثلاثة أولاد فأني لها ذلك؟؟؟

اخذ يردد (مارك) في نفسه. كيف لم تذهب؟. وكلمة (أوبرا) كادت تسحقه... ثم التفت إلي: (أوبرا)... (أوبرا) أهذا يصدق؟؟؟ وعرض له خاطر آخر فسأل (جيورجيني)، ولكن... لماذا أرتك رسمي؟

- رسمك؟... أي رسم؟

- آه!!.. هل أصبحت أنت أيضاً (خبيثاً)؟ لقد أرتك رسمي... . أرتك إياه... . إني موقن من ذلك!!! أولم تفتح لك الأم مجلة (الليستراسيون)؟؟؟

- مجلة (الليستراسيون)؟... آه... هذا صحيح... تذكر (جيورجيني)... ولكنها لم تريني رسمك!!!... لعل من المستحسن

أن أعلمك، بان زوجها مسيو (ازوري) كيماوي، وبكلمة اصح، صيدلي، وقد اخترع في المدة الأخيرة حبوبا تقوي نهود النساء متى ما بلغن سنا معينة، وهو يحسب انه سيكسب بذلك الملايين، ولو سمعت السيدتان تتحدثان عن هذه الحبوب، لأيقنت إنها حبوب عجيبة جدا، ولقد أرثني الأم الإعلان الذي نشرته مجلة (الليستراسيون) عنها، وهو إعلان طريف، يصور الإلهين (جينون) و (فينيس) يتشادان من شعورهما وهما يتنازعان علبة من هذه الحبوب التي دعاها الصيدلي: مجددة الشباب!!!

(7)

كان هذا الحديث ضربة قاضية على آمال (سيريني) وأحلامه فارتدى على كرسيه خائراً، مضطرباً، وأشار إلى (جيورجيني) بيديه، ألا يتابع حديثه، وألا يعود إليه... أما نحن، فقد كنا غارقين في صمت رهيب، لا يعدله غير صمت المقابر، ولا أضني بحاجة لأن أعلمكم، بان الدعوة وقفت عند هذا الحد، وان المدعويين عادوا إلى فلورنسا عادوا إليها ليتناولوا الطعام في مطاعمها. وقد تناولت الطعام مع (سيريني) في مطعم (ميليني)، وإذا الشاعر قد أضاع رشده، وفقد صوابه، وأعاد النقاد المسرحيين بالقطار إلى روما...

ولما فرغنا من الطعام، جعلنا نتناول الفاكهة، وإذا به ينفجر: - أرايت؟. . . لقد صادفت في حياتي انتصارات واندحارات عديدة، ولكني لم اشعر في حياتي على أثر اندحار، بالخجل القاتل الذي تركه في نفسي انتصار البارحة كلا! لم اشعر قبل اليوم بمثل هذا الخجل السام!!!

- إن الألفي شخص الذين أطاعوا هواي، وتسابقوا إلى (بونتاسيف) لمشاهدة روايتي الحديثة، وتحيتها بأعاصير داوية من الهتاف والتصفيق... والجرائد الصافحة بالتقاريط والانتقادات الفخورة بنشر اسمي ورسمي... والسياحة الموفقة التي ينتظر أن

تصادفها فرقتي... وبرقيات التهنة التي ما برحت تتقاطر علي من كل حدب وصوب... إن كل ذلك يا صديقي قد تلاشى واندثر!!!
ولإطفاء هذا اللهب... ولإحداث الظلام بتلك الأضواء، لم تتكبد تلك الريفية التي كنت احسب إنها تعجب بي إعجابا، لا يعد التآليه بجانبه شيئا مذكورا... لم تتكبد مشقة كبيرة... إنما كفاها أن تسال ذلك الأحمق (ولكن من هو مارك سيريني؟)

كم يبدو لنا العالم كبيرا. وكم هو صغير!!! إن اعظم العظماء، إذا خرجوا عن دائرة بضعة آلاف شخص، يصبحون مجهولين، لا يعرفهم أحد، ولا يأبه بهم أحد!!!

انظر هذه جريدة (لانسون) قد شغلت اكثر من نصف صفحة بالحديث عن روايتي، وهذا اسمي قد كتب فيها بحروف بارزة على أربعة عواميد... ويخيل إليك بعد ذلك إن جميع الناس أصبحوا يعرفون هذا الاسم، بل ربما ظننت انه ينبغي لهم بعد ذلك أن يعرفوه... ولكن الحقيقة هي إن لا أحد يتذكره، عندما يقلب الصفحة... هو ذا الجارسون يتأهب ليقدم لنا القهوة، وهو قد طالع جريدة هذا الصباح، ادعه واسأله. من هو مارك سيريني؟. إنني أراهنك على زجاجة شمبانيا: انه سيسخر منك، وسيفتح لك عينين كبيرتين دهشتين.

إلا إن (مارك) لم يقدم لي شيئا من الشمبانيا، لأنني أحسنت صنعا بعدم دعوة (الجارسون)، ولكن المؤلف لم ينقطع عن الشكوى والتذمر، وأخذ ينعى على نفسه جهوده الضائعة، ولم يتردد عن لصق بعض الوصمات بنفسه، لأنه زرع بذورا قوية من العمل الدائم، ليحصد بعد ذلك الموقف المزري الذي تقفه بلاده العاقة من نبوغه وعبقريته!!!

وأخيرا دعونا (الجارسون) لندفع له الحساب، وبينما (مارك) يعيد محفظته إلى جيبه، ابتسم الجارسون، وقال وهو يلتقط البقشيش:

- عفوا... ألم أحرز الشرف بخدمة (مارك سيريني)؟
فانتفض هذا الأخير وقال:

- وكيف عرفتني؟

- لقد أبصرت اسمك هذا الصباح منشورا في مجلة (الليستراسيون) وذهب يبحث عن العدد. ولم يلبث أن عاد به. وفتحه عند الصفحة التي نشر فيها رسم (سيريني) جديد بمناسبة تمثيل روايته الحديثة في (بونتاسياف) فنظرت أنا و (مارك) إليها. ولحظنا فجاء على الصفحة اليمنى. إزاء الرسم المنشور على الصفحة اليسرى تماما. أبصرنا يا لسخرية الصدف! أبصرنا (جينون وفينيس) يتنازعان علبة من الحبوب المجددة للشباب!!! فخرج (مارك) من مطعم (ميليني) وقد هدأت أعصابه، وسكنت نفسه

هل ينبغي تهنئة (الجارسون) لأنه عرف (سيريني)؟... هل ينبغي تخطئة سيدة النافذة لأنها لم تعرفه؟
كلا أيها الأصدقاء! إن سيدة (بونتاسياف) الفاتنة قد ألفت علينا درساً مفيداً، ومفيداً جداً: ينبغي علينا أن ندير الاركستروان نضع الروايات لا لغيرنا، بل لأنفسنا!!!
أما الشهرة، فهي كلمة جوفاء أيها الأصدقاء الذين أرادوني على الكلام كثيرا. الشهرة؟... كلمة لا أفكر فيها عندما أشير بعصاي اللدنة إلى أعضاء الاركستر... وهي الكلمة التي لم يعد (سيريني) يفكر فيها عندما يأخذ اليراع ليضع رواية جديدة...

الوسيط

بوكاشيو

كان في فلورنسا منذ قريب سيدة إيطالية حسناء تدعى بريتولا، وقد اشتهرت هذه السيدة بين أهل بلديتها بمكرها ودهائها وسعة حيلتها، وكان ذكاؤها وفطنتها مثار دهشتهم، وموضع إعجابهم. ومما يؤسف له أنها كانت متزوجة من تاجر غني لا يفهم الحياة إلا من ناحيتها المادية، ولا يهتم بشيء قدر اهتمامه بما يجنيه من ربح ومنفعة من وراء تجارته! أما حاله مع زوجته فلم تكن حال الزوج الموافق المهتم! وهذا ما دعاها إلى النفور منه والميل غلى غيره

وقد أسعدها الحظ حينئذ برؤية شاب جميل كان دائم المرور أمام منزلها فأحبته حباً جماً وأصبح لا يهنأ لها بال أو يسعد لها حال ما لم تره مرة في كل يوم على الأقل!! وكان هذا الشاب - واسمه تنكريد - يجهل في مبدأ الأمر تعقلها به، وعنايتها بأمره، فلم يلتفت إليها ولم يهتم بها.

وبالرغم من أن تجاهله لها كان يضايقها ويكدر عليها صفوها، فإنها كانت حريصة فلم تحاول الاتصال به عن طريق الاستفسار عنه أو إرساله الرسائل إليه خشية أن يلحظ أحد علاقتها به أو يكتشف سر حبها له؛ وهداها تفكيرها آخر الأمر إلى أن تلفت نظره إليها وتجذب قلبه نحوها عن طريق قسيس ورع كان من أخلص رفقاءه وأكثرهم له وفاء ومحبة.

وبعد أن اختمرت هذه الفكرة في رأسها ذهبت إلى الكنيسة التي يقيم بها هذا القسيس وابتدرته بقولها:

- لقد جئت إليك يا سيدي أطلب معونتك في أمر مهم سأشرحه لك. ولعلك تذكر أنني أخبرتك في مرة سابقة عن أقاربي وزوجي الذي يحبني أكثر من حبه لحياته، والذي لم يتأخر في يوم من الأيام

عن تحقيق ما أطلبه منه!! ولهذا أحببته أنا الأخرى حبا شديدا وأصبحت لا أطيق الفراق عنه أو أستطيع الحياة بدونه!! أما ما جئت إليك اليوم من أجله فهو أن هنالك شابا يدعى تنكريد، وهو كما علمت من بعض الناس صديق حميم لك، اعتاد أن يمر من أمام منزلي كل يوم، وفي كل مرة يمر فيها أراه يرمقني بنظراته التي تدل على شدة حبه لي، وكثرة هيامه بي. وقلما يحول بصره عني طيلة الوقت الذي أكون فيه مطلة من نافذة غرفتي. فاضطر إلى مغادرة النافذة أو إغلاقها في وجهه خشية أن يتقول علي الناس بما يشين سمعتي أو يسيء إلى شرفي. وليس ببعيد يا سيدي أن يكون تنكريد هذا قد تعقب خطاي ورآني وأنا أدخل هذه الكنيسة، أو من المحتمل أن يكون الآن في انتظاري خارجها! وأصدقك القول يا سيدي أن هذا الأمر قد أصبح يضايقني أكبر المضايقة، ويؤلمني أشد الألم. بل لقد بلغ الأمر بي إلى حد أنني أصبحت أفضل الموت على أن أكون مضغعة في أفواه الناس!

وبعد أن استرحت برهة قصيرة تابعت حديثها فقالت:

- وكثيرا ما فكرت يا سيدي في أن أحيط أخوتي أو زوجي علما بهذا الموضوع الشائن، ولكني لا ألبث في كل مرة أن أحجم عن ذلك حينما أتذكر أن الرجال غالبا ما يnehون مثل هذه الأمور بالضرب المؤلم الذي قد يفضي إلى الموت في كثير من الأحيان! وأخيرا استقر رأيي، حقنا للدماء وحسما للنزاع، على أن أطلب مساعدتك لسببين: الأول أن هذا الشخص صديقك فتستطيع من هذه الناحية أن تردعه بنفسك؛ والثاني أن من أهم واجبات القسيس الورع التقى إصلاح سيئات الناس وخطاياهم سواء أكانوا أصدقاء أم غرباء. وأنا أتوسل إليك يا سيدي أن تنصح صديقك هذا بالكف عن مغازلتى والامتناع عن النظر إلي. وإذا كان لابد له من هذه المغازلة فهناك كما أعلم سيدات كثيرات غيري يتمنين من صميم أفئدتهم أن يكن عشيقات وفيات له!!

ولما انتهت بريثولا من بث شكواها نكست رأسها كما لو كانت توشك أن تبكي من شدة الحزن والتأثر!!

ولم يشك القسيس الساذج في شيء مما قالتة، بل أخذ عليه العكس يمتدح خصالها الطيبة ويثني على حسن تصرفها ورجاحة عقلها!! ووعدا أخيرا بتحقيق رجائها وإجابة ملتمسها.

وقبل أن تغادر بريتولا الكنيسة قالت للقسيس الطيب القلب:
- ولا تنس يا سيدي أن تخبر تنكريد إذا دفعته الجراءة إلى إنكار شيء مما قلته لك، بأنني قد أتيت إليك بنفسني واعترفت أمامك بكل شيء...

وفي اليوم التالي أرسل القسيس في طلب صديقه تنكريد. ثم انتحى به جانبا وأخذ يلومه بلهجة هادئة، وعبارة متزنة، على تصرفه الشائن مع بريتولا...

ودهش تنكريد بطبيعة الحال لهذا الاتهام الذي لم يخطر على باله، لأنه، كما قلنا، لم يرفع بصره إلى بريتولا في مرة من المرات التي كان يمر فيها أمام منزلها؛ وبالرغم من أنه نفى عن نفسه هذه التهمة بشدة، فإن صديقه القسيس لم يصدق ذلك وقال:

- لا تتظاهر بالدهشة يا عزيزي من هذا الأمر، ولا تحاول أن تنكر هذه التهمة لأنني سمعتها من شفتي بريتولا نفسها... وبعد أن سكنت برهة قال:

- ولعلك تعلم يا تنكريد أن هذا السلوك الشائن وذلك التصرف السيئ لا يليقان برجل فاضل مثلك، وإني أنصحك نصح الصديق المخلص أن تدع هذه السيدة الفاضلة تعيش في هدوء وسلام مع زوجها الذي تحبه إلى حد العبادة! ولا تحاول أن تقلق راحتها أو تفسد حياتها مرة أخرى...

ولم يغب عن بال تنكريد غرض بريتولا من هذا الاتهام الكاذب. وقبل أن يغادر الكنيسة وعد صديقه ألا يعرض لبريتولا ولا أن يضايقها بعد ذلك. فاستراح القسيس لهذا الوعد وشكره على شهامته ونبيل أخلاقه.

وقصد تنكريد من فوره إلى منزل بريتولا. ولحسن حظه وجدها في انتظاره كالمعتاد في نافذة غرفتها.

وما كادت بريتولا تراه وهو مقبل على منزلها حتى ابتسمت له

ابتسامة خبيثة مأكرة، وتجلى البشر والسرور في قسمات وجهها،
وحيته بهزة خفيفة من رأسها الجميل.

وتأكد تنكريد الآن أنه لم يكن مخطئاً في زعمه، فابتسم لها
ابتسامة رقيقة عذبة ورد تحيتها بأحسن منها...

ومنذ هذا اليوم أخذ يصوب نظره إليها في كل مرة يمر فيها من
أمام منزلها، فكان ذلك سبباً في سرورها وغبطتها...

والظاهر أن بريتولا لم تكتف بهذا الفوز الباهر بل أرادت أن
تتقدم في سبيل حياها خطوة أخرى. فذهبت إلى القسيس وألقت
بنفسها بين قدميه، وأخذت تبكي بكاء مرا. فدهش القسيس
وسألها عن سبب بكائها! فأجابته بريتولا دون أن تكف عينها عن
البكاء.

- إنني أبك يا سيدي صديقك الملعون الذي شكوته إليك من
قبل.

فقطب القسيس ما بين حاجبيه وسألها قائلاً:

- ألا يزال هذا الرجل يضايقك؟

فأجابته بريتولا وهي تبكي:

- نعم. فمنذ أن شكوته إليك وهو لا يفتأ يضايقني بنظراته
الوقحة، ويؤلمني بابتساماته السخيفة. وليس هذا فقط. بل أنه
بعد أن كان يمر من منزلي مرة واحدة أو مرتين في اليوم أصبح يمر
الآن ما لا يقل عن سبع مرات!!

وبعد أن نهنت دموعها الجارية تابعت حديثها فقالت:

- وليت الأمر قد انتهى عند هذا الحد، فبالأمس أرسل إلى من

قبله عجوزاً لا أعرفها. وبعد أن عرفتني بنفسها أعطتني حقيبة
جلدية نفيسة ومندبلاً حريراً غالي الثمن، وقالت لي وهي تبتسم
ابتسامة ذات معنى إنها مهداتان إليّ من تنكريد! ولا أكتمك يا
سيدي أنني غضبت لذلك غضباً شديداً وكنت على وشك أن
أطردها هي وهديّة تنكريد خارج منزلي، لولا أنني خشيت أن تحتفظ
بالحقيبة والمندبيل لنفسها دون أن تخبره برفض هديته! ففضلت
أن أخذهما منها! وقد رأيت من الواجب أن أحضر معي هذه الهدية

لكي تردّها إليه وتخبره بأنني لست في حاجة إلى شيء منه. وأرجو أخيراً أن تحذر صديقك هذا بأنه إذا لم يكف عن مضايقتي، فأني سأضطرّ حتماً إلى إخبار زوجي أو أخوتي بكل شيء مهما كانت النتائج التي تترتب على ذلك قالت ذلك وقدمت الحقيبة والمنديل للقسيس وهي تتظاهر بالحزن والغضب لإهانة تنكريد إياها!!

وظن القسيس لسذاجته وسلامه صدره أن ما قالته بريتيولا قد حدث بالفعل، فغضب لذلك غضباً شديداً، وقال لها بعد أن فكر برهة:

إنني لا أستغرب يا سيدتي شدة حزنك لهذا الأمر، ولست أؤمك بالطبع على شيء مما حدث. بل إنني على العكس أشكرك على اتباعك نصيحتي، وعملك بمشورتي. ومع أنني لمت تنكريد عندما زارني لأول مرة، فإنه على ما يظهر لم يرعو عن غيه، ولم يرتدع عن ضلاله، ولهذا عولت على أن أوبخه توبيخاً شديداً على هذا السلوك المعيب. وأرجو يا سيدتي ألا تنقادي لعاطفتك فتخبري زوجك أو أخوتك بهذا الأمر، فإن نتائج السيئة لا تخفى بالطبع على سيدة عاقلة مثلك، بل اتركي كل شيء وأنا أتصرف فيه بعقلي وحكمتي.

وما كادت بريتيولا تبرح الكنيسة حتى أرسل القسيس في طلب صديقه تنكريد مرة أخرى. فلما جاء قابله بوجه عابس وجبين مقطب. واستنتج تنكريد من ذلك أنه لابد وأن تحدث مع بريتيولا فانتظر بفارغ صبر ما سيقوله له. ولم يطل انتظاره طويلاً إذ انهال عليه القسيس بوابل من الشتائم واللعنات بعد أن أعاد على مسامعه كل ما ذكرته بريتيولا له.

وبالرغم من أن تنكريد أنكر بشدة إرساله الحقيبة والمنديل إلى بريتيولا، إلا أن القسيس لم يصدق قوله، بل اشتدت حدته وازداد غضبه عن ذي قبل ثم قال:

- كيف تنكر ذلك أيها الشرير المنافق مع وجود دليل المادي على ارتكاب فعلتك؟

ثم نهض من مقعده، وأحضر الحقيبة والمنديل وناولهما إياه

ثم قال:

- أليس في هذا الكفاية؟ فشعر تنكريد - مع براءته - بالخجل لوجود ذلك الدليل القاطع ولما لم يجد بدا من الاعتراف بهذه التهمة المنسوبة إليه قال:

- نعم. لقد أرسلت إلى بريتولا هذه الهدية لأنني كنت أحبها كغيرها من النساء، ولكني بعد أن تأكدت الآن أنها تختلف عنهن كل الاختلاف، فإني أعدك بشرفي ألا أرتكب ما يسيء سمعتها أو يجرح شعورها. وثق يا سيدي أنك لن تسمع منها بعد اليوم شكوى ولم ينس تنكريد أن يأخذ معه الحقيبة والمنديل قبل أن يغادر الكنيسة بعد أن اقتنع تماما من أن بريتولا تحبه حبا جما، وتهيم به هياما شديدا، وأنها ما فعلت ذلك إلا بدافع هذا الحب والهيام. وقصد تنكريد من فوره إلى منزل بريتولا حيث كانت لحسن الحظ في انتظاره كالمعتاد، وما كاد صاحبنا يلمحها من بعيد حتى أخرج من تحت إبطه الحقيبة والمنديل وأراهما إياها. فسرت بريتولا سرورا شديدا لأنها عرفت حينئذ أن خطتها المرسومة سائرة في طريق التقدم.

ولم يبق إلا غياب الزوج عن منزله لتكفل خيانة بريتولا بالنجاح التام. ولم يطل انتظارها طويلا إذ اضطر الزوج بعد بضعة أيام من وقوع الحادث السابق إلى السفر إلى جنوا، للقيام بإحدى المشاغل الضرورية التي تتطلبها طبيعة عمله

وذهبت بريتولا إلى القسيس مرة ثالثة عقب سفر زوجها مباشرة وقالت له وهي تبكي:

- لقد سبق أن قلت لك يا سيدي بصراحة أنه لا يمكنني أن أحتمل مضايقة تنكريد أكثر من ذلك. ولما كنت قد وعدتك بالا أقدم على عمل شيء قبل مشورتك، فقد جئت إليك اليوم لأشكو لك من صديقك تنكريد...

فذهل القسيس حينما سمع منها ذلك وسألها قائلاً:

- ألا يزال هذا الملعون يضايقك؟؟ فقال له: بريتولا وهي تتظاهر بالحدة والغضب:

- نعم. ففي مساء الليلة الماضية دخل حديقة منزلي بعد أن علم بسفر زوجي إلى جنوا - ولست أدري كيف - وتسلق إحدى الأشجار إلى نافذة غرفتي، والتي كانت لسوء حظي مفتوحة في ذلك الوقت. وكنت على وشك أن أصرخ عندما رأيته في غرفتي لولا أنه توسل إلي ألا أفعل ذلك، ورجاني بأن أكون رحيمة به فلا أرتكب ما يلفت أنظار الناس إليه. وأقول لك الحق يا سيدي إنني خضعت لتوسلاته ولم أفعل شيئاً أكثر من أنني طردته من نفس النافذة التي جاء منها ثم أغلقتها وراءه بشدة...

وبعد أن سكنت برهة تابعت حديثها فقالت:

- والآن أرجو أن تحكم يا سيدي بنفسك في هذا الأمر وتخبرني هل في إمكاني أن أحتمل مضايقة تنكريد أكثر من ذلك؟؟ أو ليس من الواجب أن أخبر أخوتي بما فعله حتى يردوه إلى صوابه، ويعيدوا إليه ما عزب من عقله؟؟

واحمروجه القسيس حينما سمع ذلك وفاردم الحنق والغضب حارا في عروقه وقال:

- وهل أنت متأكدة من أن الذي دخل غرفتك إنما هو تنكريد دون غيره؟؟

فأجابته بريتيولا وهي لا تزال تبكي:

- وهل يمكنني يا سيدي أن أخطئ في معرفته بعد كل ذلك؟؟ فأنا واثقة تمام الثقة من أن الشخص الذي دخل غرفتي إنما هو تنكريد نفسه. وإذا تجاسر وأنكر ذلك أمامك - وهذا ما سيفعله بالطبع - فأرجو منك ألا تصدقه...

وبعد أن مرت بين الاثنين فترة سكوت قصيرة قطعها القسيس بقوله:

- إن ما فعلته يا سيدتي إنما هو الصواب بعينه؛ وقد قمت بواجبك خير قيام. ولست أنكر أن عمل تنكريد في منتهى الخسة والدناءة، ولكني مع ذلك استحلفك بالله أن تتركي هذا الأمر لي مرة أخرى دون أن تخبري أخوتك بشيء مما حدث؛ وسترين بعد ذلك إذا كان في إمكاني أن أقوم اعوجاج تنكريد. فإذا أفلحت كان بها،

وإذا فشلت فسأترك لك الخيار في أن تتصرفي في هذا الأمر كما تشمين...

وقبل أن تغادر بریتولا الكنيسة قالت للقسيس وهو يودعها:

- تأكد يا سيدي بأني لن أضايقك بهذه المسألة بعد الآن. وقد

استقرر رأيي على ألا أخبرك بشيء في هذا الموضوع مطلقا

وما كادت بریتولا تبرح الكنيسة حتى استدعى القسيس صديقه

تنكريد بعد أن استقر رأيه على أن يزجره زجرا شديدا وأن يعنفه

تعنيفا قاسيا. ولما حضر قابله بوجه مقطب، ومظهر قاس، ثم

انتحى به ناحية من الكنيسة وأخذ ينهال عليه بالشتائم واللعنات

التي كانت تزداد حدتها شيئا فشيئا، بينما جلس الآخر في مكانه

هادئا ساكنا كما لو كانت هذه الشتائم واللعنات موجهة إلى غيره!

وأخيرا تضايق تنكريد من تأنيب القسيس وقال:

- ما الذي فعلته يا صحابي حتى استحق منك كل هذه الشتائم؟

فازداد غضب القسيس لهذا الإنكار وضحك ضحكة ساخرة ثم

قال:

- ألا تدري ماذا فعلت أيها الأحمق؟ إنك تتكلم كما لو كان هذا

الأمر لا يعنيك...

فتظاهر تنكريد بالدهشة وقاطعه بقوله:

- عن أي أمر تتحدث يا مولاي؟؟

فحملق القسيس في وجهه بشدة وقال:

- أين كنت في مساء الليلة الماضية؟

فأجابه تنكريد بهدوئه وسكونه المعتاد:

- لست أدري بالضبط يا سيدي!!

فازدادت ثورة القسيس ثم قال:

- سأخبرك أين كنت أيها المخادع الشرير!!

وبعد أن استجمع شتات تفكيره تابع حديثه فقال:

- لقد دخلت حديقة بریتولا في مساء الليلة الماضية ثم تسلقت

إحدى الأشجار إلى غرفتها، وكاد أمرك يفتضح لولا أنها أشفقت

عليك ورأفت بك ولم تفعل شيئا أكثر من أنها طردتك من نفس

الطريق الذي جئت منه!!

ولم يرغب عن بال تنكريد ماذا تقصده بريتولا من هذا الكلام الذي قالت له للقسيس، وأخذ يفكر فيما يجب عليه أن يفعله في مساء تلك الليلة، ولكن القسيس ما لبث أن قطع عليه حبل تأملاته فقال:

- إنك تظن أيها المنافق أن في إمكانك أن تحمل هذه السيدة الفاضلة على حبك. . . ولكن لا! ولست أغالي إذا قلت لك أنك أصبحت الآن أبغض الناس إليها، وأثقلهم على قلبها! وليس هذا فقط، بل أنك أمسيت في نظرها كالطاعون الذي لا يترك إنسانا إلا بعد أن يفتك به! حقا إنك لم تستمع لنصحي ولم تأبه لإرشادي، ولكني أؤكد لك بأن الأمر قد خرج الآن من يدي. فإذا لم ترتدع، فستضطر بريتولا إلى إخبار اخوتها أو زوجها بكل ما فعلته معها، وفي هذا كما تعلم ويل وعذاب لك. . .

وبعد أن هدا تنكريد ثورة القسيس بوعوده وتوسلاته غادر الكنيسة وهو على أشد ما يكون من الفرح والسرور وفي المساء ذهب إلى منزل بريتولا ثم دخل الحديقة وتسلق الشجرة التي تؤدي إلى نافذة غرفتها، والتي تركتها مفتوحة لهذا الغرض. ولما دخل الغرفة قابلته حبيبته يشغف ظاهرو سرور عظيم، وتعانق الاثنان عناقا حارا وهما يشكران هذا القسيس الذي كان واسطة التعارف بينهما!

ومن بعد هذا اليوم أصبح العاشقان الفاسقان يتقابلان دون أن يحتاجا إلى وساطة هذا القسيس الطيب القلب!!

ذلك الرجل!!

جبريل دانونزيو

كان قصير القامة ممشوقها، تنوء رقبتة برأس ضخيم يميل قليلا إلى اليسار، وقد اكتسى هذا الرأس غابة كثيفة من الشعر الكستنائي المسترسل إلى كتفيه في تجعدات والتواءات، تلعب به الريح لعبها بعرف الجواد، ولحية كثة كلحية المتقشفين، تركها دون تهذيب وقد تراكمت عليها ندف صغيرة من القش. وكانت عيناه تتطلعان دائما إلى موقع قدميه العاريتين، حتى إذا ما رفعهما ظهر فيهما الغموض والابهام، ولاح فيهما الرعب، أو بدتا كما لو كانتا عينني مخبول تارة، أو رجل محموم تارة أخرى. أو تشهد فيهما ما يجعلك تفكر في الماء الأخضر الأسن الراكد في حفرة ضيقة، أو في وميض السيف اللامع.

كان يرتدي سترة قديمة حمراء، قد ألقى بها على كتفيه كأنها المعطف. وكان الناس يروون عنه شتى الأقاصيص، ويتحدثون عن حب، وخيانة، واعتداء، وهروب...

كنت في سن الثالثة عشرة عند ما قابلته أول مرة، فجذبني منظره. وكان ذلك في يوم من أيام الصيف الحارة والميدان الكبير تغمره الشمس، وقد أقفر إلا من بعض الكلاب تتسكع هنا وهناك، والسكون مخيم على المكان، اللهم إلا من ذلك الصرير الممل لعجلة السنن. وكنت قد اعتدت الوقوف برهة أراقب ذلك الرجل من خلف مصراعي نافذة غرفتي، فأراه يسير في بطئ تحت شمس الظهيرة، يختال في جوف العظمة، أو يزحف قرب الكلاب في هدوء حتى لا تلاحظه، ويلتقط حجرا يقذفها به في خفة ثم يهرب متظاهرا بأنه شيء غير منظور، فتقبل عليه الكلاب وتلتف حوله وهي تبصص بأذنانها، فينظر إليها ثم ينفجر ضاحكا ضحكات قصيرة

صبيانية فأشاركه ضحكه.

وفي ذات يوم تماكنت شجاعتي، وأطللت برأسي من النافذة ثم ناديته. فالتفت إلى في سرعة ثم ابتسم، والتقطت زهرة من الأقاصيص قذفت بها إليه، ومنذ ذلك الحين أصبحنا صديقين.

وفي مساء يوم سبت كنت واقفا على الجسر وحيدا أراقب حركة أسطول الصيادين وهوراجع من الصيد. كانت شمس يوليو البديعة تغرب، وقد احمرت السماء بالسحب الذهبية، وتوهج النهر الجاري صوب البحر وارتعشت أمواجه في تلالؤ زاه. وكانت الضفاف تحت الهضبات تلقى على الماء فتنعكس الأشجار، وتظهر قممها كأنها نائمة على صفحة الماء في ذلك الجو الحار. وجعلت القوارب تلقى مراسيها في بطئ وقد طوت أشرعتها البرتقالية الكبيرة ذات الخطوط الزخرفية السوداء. وابتدأت تفرغ حمولتها من السمك. وسرت الريح تحمل أصوات النوتية ورائحة الصخور. والتفت فجأة ورأني فرأيت الرجل واقفا يتصبب عرقا، وقد أخفى يده اليمنى وراء ظهره، وأضاءت فمه ابتسامته الصبيانية المعهودة. فصحت اهتف باسمه وأنا أمد يدي المتخاذلة إليه في سرور. وتقدم نحوي وقدم إلى بيده التي كان يخفيها باقة أنيقة من الخشخاش الأحمر وسنابل القمح الذهبية. فصحت وأنا أتناولها منه (أشكرك، أشكرك، ما أجملها..)

وسحب يده على حاجبيه، وجعل يمسح العرق المتساقط ثم ينظر إلى أصابعه المبللة ثم إلي، وأخيراً ضحك وقال (إن الخشخاش الأحمر ينمو بين القمح الأصفر هناك في الحقول، فرأيتها وأحضرتها لك فقلت لي) ما أجملها (وكانت الشمس كالنار).

كان يتكلم في خنوع، ويقف بين كل كلمة وأخرى كأنه يحاول أن يتبع خيط أفكاره. أم آلاف الصور المهمة المضطربة كانت تتجمع في ذهنه. فيحاول أن يبرزها ويتشبت باثنتين أو ثلاثة منها، تلك التي كانت أكثرها ثبوتا وأوضحها صورة، وتهرب منه الصور الباقية. كنت الحظ ذلك في عينيه فأتعجب. وكأنه شعر بما يجول في خاطري، فأدار رأسه صوب قوارب الصيد وقال وهو يفكر:

- هذا الشراع، إنه شراعان، واحد في الهواء، وواحد في الماء.
كان لا يدرك أن الشراع الأسفل انعكاس الشراع الأعلى على
صفحة الماء. فجعلت اشرح له ذلك قدر امكاني، فاستمع إلي في
ذهول، ثم ابتسم وتطلع إلى الأشرعة.

وسقطت زهرة من الخشخاش في النهر، فراقبها حتى اختفت مع
التيار، ثم قال في صوت حزين لا يوصف (لقد رحلت بعيدا، بعيدا
جدا (وكأنها شيء عزيز لديه).

وبعد لحظة من الصمت سألته (من أي قرية أتيت؟)
فالتفت صوب السماء يتطلع إلى صفاء لونها الزبرجدي. كانت
الجمال القاتمة تظهر أمام الأفق كأنها جبار راقد. وامتد الجسر
الحديدي فوق النهر يقطع السماء إلى صور صغيرة، وظهرت خلفه
الأشجار الخضراء وقد استحالت إلى أشباح قاتمة. واختلطت
ضحكات الجنود في الثكنات بصوت البوق.

وأخيراً قال (كان عندي منزل ابيض، نعم كان كذلك، تحفه
حديقة كبيرة من الفواكه. لقد اعتادت تريزا أن تحظر في المساء.
كانت جميلة، أن عينها... ولكن...)

وكف عن الكلام وقد ظهرت على هنيهة الكآبة. ولكن سرعان ما
عاد إلى هدوئه، ثم انحنى لي، وسار مبتعدا عني وهو يغني.
ومنذ ذلك الحين كنت كلما أراه يمر في الطريق أناديه وأجود له
ببعض الطعام. وفي ذات مرة قدمت إليه القليل من النقود الذي
أعطيتني إياه والدتي، ونظر إلي في صرامة، ثم دفع بها إلى في احتقار
ظاهر، وأخيراً أدار ظهره ومشى دون أن يلتفت إلى.

وفي ذلك المساء قابلته خارج الميناء الجديد، فتقدمت إليه
قائلا

- سامحني، سامحني.

فهرب كأنه حيوان جافل، وفي لحظة كان قد اختفى عن
أنظارني بين الأشجار. ولكن في صباح اليوم التالي كان ينتظرني على
باب داري، وابتسم في شجاعة، ثم قدم إلى ياقة يانعة من زهور
المرجريت. كانت عيناه محضلتين بالدموع، وشفته ترتعشان...

وعادت المياه إلى مجاريها.

وفي ذات مرة، في أواخر شهر أغسطس، كنا جالسين في نهاية الطريق وكانت الشمس قد توارت بالجبال. وقد امتدت أشجار الصنوبر حتى البحر، وابتدأ القمر يرتفع في بطن في عنان السماء بين السحب القاتمة...

ونظر إلى القمر ثم متم قائلاً (انظر! الآن تستطيع أن تراه. . .
تستطيع أن تراه)

وجعل يتأمله لحظة ثم قال (ذلك القمر! إن له عينين وأنفاً وفما كاللبشر، لست ادري ما الذي يفكر فيه. من يدري؟)

ثم جعل يندندن أغنية ذات لحن حزين، من تلك الأغنيات التي يرتلها الأهليون عند قطف الكروم في ليالي الخريف الحارة. وكان يلوح لنا عن بعد مصباحاً قطار قادم في سرعة، فظهر كأنهما عينا وحش تحدقان فينا. ومر القطار يهدرو ويتعالى دخانه وصفيره عند عبوره الجسر الحديدي، وعاد الصمت يخيم تدريجياً على الأرض الشاسعة.

ووقف الرجل على قدميه وصاح وهو يشير إلى القطار المبتعد (اذهب، اذهب، اذهب، بعيداً، بعيداً، انك تنساب كالتنين، والنار في داخلك، النار التي وضعها فيك الشيطان)

ولن أنسى ما حييت منظره وهو واقف في هذه اللحظة. . ولم يهدأ انفعاله إلا بعد أن تلاشى صوت القطار وعاد الصمت يخيم على الطبيعة.

وعندما كنا في طريقنا إلى الدار كان لا يزال غارقاً في أحلامه. وفي ذات صباح جميل من سبتمبر ذهبنا إلى البحر. إن ذلك الاتساع السرمدى للماء الأزرق العميق كان ممتداً حتى الأفق المتألق، وكانت قوارب الصيد تبهر أزواجاً، فتظهر كأنها طيور هائلة الحجم مجهولة النوع، قد نشرت أجنحتها الصفراء القرمزية. وكانت الهضاب الرملية النحاسية ترقد على طول الساحل خلفنا وقد لاحت من ورائها الكتل الضخمة الخضراء من مزروعات شجر الصفصاف.

قال في صوت خافت وكأنه يخاطب نفسه في لهجة التعجب والشعور بالخوف (يا لهذا البحر الخضم الأزرق الضخم! ويا لهذه الأسماك الضاربة المفترسة! إن (أراكس) هناك سجين في قفص من حديد، يصيح فلا يسمع أحد صيحاته. انه لن يرجع ثانية. وهذه السفينة السابحة في الماء، إنها تجلب الموت لكل من يشاهدها؟ ثم صمت. . واقبل على الشاطئ حتى غمرت الأمواج البيض الصغيرة قدميه. من يدري ما الذي كان يحدث داخل عقل المسكين الضعيف؟

وبينما نحن مقبلان على الداروقد التزم الصمت طول الطريق نظرت إليه فاخبرني قلبي بأشياء غريبة.

وهمس أخيراً في صوت خافت وهو يأخذ بيدي (إن لك أما في منزلك ننتظر أوبتك لتقبلك) كانت الشمس تغرب في الماء الصافي خلف الجبال، والنهر يتلألأ بشتى الانعكاسات.

فسألته والدموع تتساقط من عيني وانت، اين والدتك؟ فنظر إلى عصفورين في الطريق، والتقط حجرا سدده كأنه بندقية في يده، ثم أطلقه عليهما، فوليا كأنهما السهام.

وصاح وهو يراقب طيرانهما في السماء اللامعة وهو يضحك في صخب (طيرا.. طيرا..).

ومرت الأيام فلاحظت فيه تغيرا، كأنما أصابته الحمى. كان ينطلق مسرعا إلى الحقول كأنه الجواد حتى يقع على الأرض مبهور الأنفاس، أو يرقد الساعات مفترش الثرى دون حراك يحرق بعينه في وهج شمس الظهر المحرقة. وعندما يقبل المساء كان يلقي بمعطفه الأحمر على كتفيه ويتنزه جيئة وذهابا في الميدان، يختال في خطوات طويلة بطيئة كأنه عظيم إسباني. وكان يتحاشاني، ولا يجلب لي الزهور. وتأملت لهذا الهجر. كان الناس يدعون بأنه سحرني. وفي ذات صباح ذهب قاصدا لقياه. ولكنه لم يرفع عينيه، بل احمر وجهه كأنما مسته نار. فصحت في اضطراب (ما الأمر؟)

- لا شيء،

- بل هناك شيء.

- لا شيء.

- هذا غير صحيح.

ولاحظت انه ينظر أمامه بعينين متقدتين، فالتفت، فوجدته يتطلع إلى فتاة ريفية حسناء واقفة أمام مدخل حانوت وتمتم وقد شحب لونه: (تريزا) ففهمت إن الرجل المسكين كان يتخيل في هذه الفتاة عادة بلدته التي أثرت على قواه العقلية وبعد يومين قابلها في الميدان، فاقترب منها مبتسما وهو يقول: (إنك أكثر جمالا من الشمس. فلطمته بقوة على وجهه)

كان هناك بعض الصغار بالقرب منهما، فجعلوا يسخرون منه بعد أن تركته الفتاة وحيدا مصدوماً باهتاً، وابتدأت بقايا الخضر تطير فترتطم في وجهه. والتفت إلى الصبية، وهدر كالثور الجريح، ثم أمسك بواحد منهم وألقاه على الأرض كأنه من الأسماك.

ورايته، يمر أمام نافذتي بين أيدي اثنين من رجال الشرطة مقيدا، والدم يسيل من لحيته منحني الظهر، مرتعش الجسد، والناس من خلفه يضحكون ويسخرون. نظرت إليه فامتلأت عيناه بالدموع.

وكان الحظ قد واتاه، فان الصبي لم يصب إلا بجروح يسيرة، وخرج من السجن بعد يومين

مسكين ذلك الرجل! كان قد تغير تغيرا تاما واصبح مكتئب الوجه لا يثق في أحد، غضوبا وكنت أراه في بعض الأحيان ينفلت مساء في سرعة كبيرة كأنه الكلب، ويختفي في طريق مظلم قذر

وفي ذات صباح مشرق الشمس صافي السماء من أكتوبر وجدوه على خط السكة الحديدية بجانب الجسر وقد تمزق إرباً حتى اصبح كتلة دامية مشوهة من اللحم، وانسحب إحدى ساقيه مع عجالات القطار الذي دهمه إلى مسافة بعيدة، وظهرت عيناه الخضراوان في رأسه المقطوع الذقن المصبوغ الشعر بالدم القاني، تحدقان في رعب هائل

مسكين ذلك الرجل! كان يود أن يشاهد القطار عن قرب،

ولكنه كان يبتعد ثم يبتعد - كما يقول - ذلك الوحش الطويل ذلك
التنين الذي بداخله النار التي وضعها الشيطان!

الأرنب

جرازا دليدا

قامت الجزيرة الصغيرة وسط النهر العريض، وقد توسطتها بحيرة صغيرة، أو بالأحرى غدير تحيط به الأشجار والحشائش الطويلة الناعمة، مرصعة بأزهار عباد الشمس الأرجوانية، على صفحته كل صور الطبيعة، فظهرت أكثر جمالا وأرق خيالا.

وأضفى على المكان، حيث سماء الخريف المتجددة الألوان المتغيرة السحب نهاراً، وحيث البدر المضيء والنجوم المتألثة ليلا، وأشباح الأفنان المتمايلة تنعكس على مرآة البحيرة العميقة، أضفى كل ذلك عليه جواً من الخيال الرائع.

وفي ذات يوم أرسى الصياد قاربه على الشاطئ الرخو للجزيرة المهجورة، وانطبعت آثار أقدامه على الرمل الأملس. ورأى البدر يظهر خلال الأفنان فينعكس نوره اللازوردي على ماء الغدير الصغير، فمهرجما ذلك العالم المجهول، وتلك السماء الشاسعة الغامضة التي ظهرت على صفحة الماء كأنها خارجة من قلب الأرض ذاتها.

ورأت أرنب عجوز كانت تعيش بين الأشجار على ضفة الغدير رأت الصياد عدوها اللدود، فولت هاربة في خفة وسكون، وقد رفعت أذنها كأنهما سلاح تذود به عن نفسها.

وغرق الرجل في أحلامه، وفقدت الأرنب أحلامها. وعندما وصلت وسط الغابة ربضت تحت شجرة قائمة وانتظرت وقتاً طويلا وهي ترهف السمع وتشم الهواء بأنفها الصغير المرتعش وقلبها يدق دقات قوية لم تستمع إلى مثلها منذ شهور وشهور.

لقد ظنت الأرنب العجوز عندما اختفت جميع الأرانب من أرض الجزيرة بعد الفيضان السابق أنها المالكة الوحيدة لهذا

المكان، وكم حلمت بالعيش هنا بقية أيام حياتها عيشة هادئة، وحيدة لا ينازعها أحد، بعد أن هرمت وهجرها أولادها وتخلى عنها الذكور، ولكن...

وتذكرت، لقد عاشت بين جذوع الأشجار التي اكتسحها الفيضان وألقى بها على الضفة المرتفعة للغدير الصغير. وأضحت الجزيرة القاحلة لا يهتم أحد بارتياها، وحتى بعد أن جف رملها ونبتت الحشائش على ضفاف الغدير، لم يزرها الصيادون، ولم يبق فيها إلا الهدوء والوحدة. ولم يعكر ذلك الصفو سوى تغريد البلابل على أشجار، إلى حفيف الأغصان وهي ترحب بالماء يجري تحت ضوء القمر فتتهف قائلة (وداعاً أيها الماء، إنه من الأفضل أن تجري من أن تظل ساكناً) فيرد عليها الماء مندفعاً نحو البحر (وداعاً، أنه خليك بك أن تظل ساكناً من أن تجري وتجري على الدوام).

وكانت الأرنب تستمع إليهما فتشعر بالسعادة تغمر كيانهما. إنها أقوى من الأشجار وأسرع من الماء. لقد كان في استطاعتها أن تظل ساكنة، أو تظل جارية.

ومرت الشهور، وصمتت البلابل، وتساقطت أوراق الأشجار، وأصبحت الأرانب العجوز في سعادة وهدوء وطمأنينة لم تشعر بها من قبل. أما الآن، فقد أقبل ثانية ذلك الشبح الداكن المرعب... ولماذا يعود؟

ورقدت الأرنب منطوية على نفسها بين الأشجار، وعيناها تحدقان تحت جفونها المحمرة. كانت ترى أمامها امتداداً من الرمل اللامع تحت ضوء القمر، وقد أحاطت بالدغل تلك الساحة التي كانت مرتعاً وملهى لها زمن الصبي والشباب. كانت إذ ذاك تثب وتتعقب ظلها أو ترتقب حبيبها في الليالي التي يشرق فيها البدر... وتحرك خيال على الرمل أعقبه آخر، فظنت الأرنب أنها تحلم. ولكن سرعان ما عاد الخيالان إلى الظهور وجعلا يلعبان ويمرحان لم يكن هناك أدنى شك في حقيقة وجودهما. كانا أرنبين. وعندئذ أدركت المخلوقة العجوز سبب عودة عدوها الداكن، ذلك الصياد،

وظهوره في الجزيرة ليلا. وعندئذ انفجر بركان غضبها. لقد انتهكت رفيقاتها حرمة هذه الجزيرة، جزيرتها، واحتلتها دون وجه حق... إن السن والوحدة قد خلقا منها مخلوقة متوحشة أنانية. وكان غضبها، عندما شاهدت الأرنيين أكثر من غضبها عند رؤيتها ذلك العدو الداكن. وعندما اندفعت من مخبئها وتحركت صوب الفضاء الرملي ورأت الأرنيين العاشقين، زاده حدة غضبها واشتد سعيه.

ولكن ذلك لم يحل بين العاشقين وبين اللهو والقفز والعدو. كانت الأنثى ممتلئة الجسم شفافة الأذنين. وكانت تعدو حول الذكر وكأنها لا تراه، ثم ترقد على الرمل، حتى إذا ما اقترب منها هبت واقفة وجعلت تعدو. وكان الذكر نحيل الجسم مشبوب العاطفة. وكانت كل أنظاره تتجه إلى أنثاه، فتبعها واندفع نحوها كانا سعيدين مبتهجين خالي البال.

ولم تتعب الأرنب العجوز من النظر إليهما، واستمرت تراقبهما حتى اختفيا عن أنظارها بعد أن أجهدهما اللهو اللعب، وارتعشت أذناها كأنهما ورقتا شجرتا لعب بهما الرياح.

ومرت الأيام والليالي، واختفى القمر وأظلم المكان، ولما ترجع الأرنب العجوز بعد إلى ضفاف الغدير. كانت تخشى مقابلة الصياد. ورقدت في أعماق الغابة المظلمة ولكنها كانت تجازف في بعض الأحيان فتخرج إلى العراء ليلا لتشاهد العاشقين يمرحان في بهجة وسرور.

وفي ذات يوم سمعت صوت طلقة نارية أعقبها أخرى ثم الثالثة على بعد كأنها تردد لصدى بعيد. وأقبل الليل الدافئ وانحدر القمر خلف الأشجار العالية دون أن يظهر العاشقان في تلك الليلة الشاعرية التي تليق للعشاق.

لابد أن العدو الداكن قد اقتنصهما. وعندئذ طغى على الأرنب العجوز شعور من الفرح الشديد جعلها تقفز على الرمل الذي ما زالت تنطبع عليه آثار أقدام العاشقين المسكينين.

وسرعان ما سمعت وقع أقدام بشرية فولت هاربة. واخترقت

الغابة حتى اقتربت من الضفة الأخرى للنهر، ورقدت هناك منزوية حتى مطلع الفجر في مكان لم تعهده من قبل.

وعندما أشرقت الشمس قامت من مرقدها. كانت الغابة قد أسدل عليها ستار من الضباب، وتساقطت قطرات الماء البارد من الأشجار. وذهبت الأرنب تستكشف، واندفعت في حفرة صغيرة. فرأت ما أثار عاطفتها على الرغم من أنها كانت جامدة العواطف. لقد وجدت عشا لصغار الأرانب رقد فيه أرنبان صغيران ممتلاً الجسم، يحملقان إليها بأعين ملتمة. لابد أنهما نسل الأرنيين الذي اقتنصهما الصياد.

كان أحدهما يلحق رأس أخيه، وعندما رأى الأرنب العجوز نظر إليها، ثم جعل يشمها بأنفه المرتعش ثم انكمش خائفاً من جرأته هذه.

وتركتهما الأرنب العجوز وسارت في طريقها. ولكنها رجعت إليهما ثانية فرأتهما يمرحان ويلعب كل منهما الآخر.

كان ذلك اليوم قاتماً بارداً. وعندما أقبل المساء بدأت السماء تمطر. فرجعت العجوز إلى عشاها القديم بين جزوع الأشجار على الضفة المرتفعة للغدير. واستمرت السماء تجود مطراً مدراراً. إن المطر معناه نهاية الطقس الجميل، وبدء الطمأنينة والوحدة، فسرعان ما يصير الرمل رخواً، ولن يجرو الصياد على عبور الغابة المنداة العارية.

ولكن... ما مصير هذين الأرنيين الصغيرين؟ وما الذي يحدث لهما هناك في عشاها الصغير؟ هل تذكرت الأرنب الوحيدة أولادها الصغار، ودفء عشاها، وعطف الآباء؟ إنه من المعتذر معرفة ما جال في خاطرها في ذلك الوقت، ولكنها على أية حال تركت مخبأها عند الفجر وذهبت لترى الصغيرين. كان المخلوقان المسكينان نائمين وقد احتضن أحدهما الآخر. وكانا وهما مستغرقان في النوم كأنهما يتوقعان قدوم أمهما، فإنه عندما أقبلت عليهما الأرنب العجوز مدا أنفهما وحركا آذانهما.

ونظرت إليهما العجوز بعينين مندتين بالدموع ومدت هي

الأخرى أنفهما كأنها تشم رائحة العشب.
وعادت السماء تهطل مطراً غزيراً. . . واستمرت سبع ليال
وثمانية أيام حتى أحاطت الجزيرة غلالة قاتمة من الضباب والماء.
وارتفع الماء وظل يرتفع حتى شارب مأوى الأرنب العجوز.
حاولت أن ترجع لتشاهد الأرنيين ولكنه تعذر عليها السير بقرب
ملجئها من الرمال المتداعي المشبع بالماء. وأصبح من المستحيل
عليها أن تصل إلى الوادي الصغير. وعادت السماء تمطر وتمطر،
واستمعت الأرنب إلى صوت داو قادم من بعيد كأنه ضوضاء جيش
معاد غازيمر مخترقا الأرض مدمرا ما يصادفه.
كانت الأرنب تعرف ذلك الصوت جيداً. إنه هدير النهر المغتصب.
فلم تجرأ على مغادرة عشها على الرغم من شعورها بالجوع ونفاذ
ما تقتات به اللهم إلا أوراق الشجر الجافة. فاضطرت أن تظل
دون طعام بعد أن وصل الماء إلى جذوع الشجر وأصبح من الخطر
عليها أن تتحرك قيد أنملة.
وارتفع الماء وظل يرتفع في سكون وحلقة. وظهرت الأرض والسماء
والهواء كأنها كتلة واحدة من البرد والماء المضطرب.
وفي اليوم الثامن أفلعت السماء وانقشعت السحب عن زرقتها
فبدا القمر يلمع ضوءه الفضي وغيض الماء وظهر كأنه يتراجع
مجهداً من النصر حاملاً معه غنائه وأسلابه من الأغصان وأوراق
الشجر والطيني والرمل والمخلوقات الميتة. . .
وفي اليوم التالي أشرقت الشمس على المكان المقفر، فتركت
الأرنب مخبأها وجعلت تتطلع حولها.
لقد اختفى الغدير وحل محله تيار بطيء من الماء المشرب
بالوحد يجري تحت الضفة العالية حاملاً معه ضحاياها.
وفجأة لاح للأرنب العجوز بين الأغصان العارية وأوراق الأشجار
الجافة وآلاف الفقاعات الصغيرة كأنها حبات عقد انفرط لاح لها
الأرنبان الصغيران، جثتين هامدتين، نحيلين طويلين مفتحي الأعين
مرتفعي الأذان، يسبحان ويسبحان في الماء الجاري، الواحد بجانب
الأخر وكأنهما شقيقان صغيران لا يود أحدهما الافتراق عن الآخر

حتى بعد الموت.

وهكذا عادت الوحدة والوحشة تطرقان قلب الأرنب العجوز
وهكذا عادت الجزيرة إلى حالها من الهدوء والسكون.

ضحية الوهم

ماسيمو بونتيمبلي

عهد إلي (رينيه كلامار) أن أقتل الوقت مع (ميني)، لأنه يريد أن يقضي أمراً يقصيه عنها نحو نصف الساعة. فأخذنا نسير في طريق اللوفر. وعلى حين غرة تركتني ميني مسرعة إلى الناحية الأخرى من الشارع لترى صندوقاً زجاجياً مستطيل الشكل وضع أمام حانوت لبيع أدوات صيد السمك.

وكانت الأسماك الذهبية تسبح في الماء الصافي الذي امتلأ به الإناء. وكأنها من شدة فرحها لا تعرف بحراً خضماً أعظم من هذا الصندوق الزجاجي

وقالت ميني بعد أن صفقت بيديها:

(يا إلهي، ما أجملها!)

ودنوت أنا منها. ووافقتها على ذلك، وفي صوتي نبرات الجد، قائلاً:

(نعم، إنها جديرة بأن تحوز إعجاب الناس.)

فنظرت إلي ميني نظرة ناقد وقالت:

(ما هذا التعبير: جديرة بأن تحوز إعجاب الناس؟ أنه لا يقال إلا لما يصنعه الإنسان بيده سواء أكان هذا صوراً أم شعراً كالذي يتكلم عنه أصدقاؤك. وكذلك يمكن أن يقال هذا عن الثياب....)

ولكنني قاطعتها بقوة من يريد الفصل في الموضوع: (لا بد لي أن ألقت نظرت إلي أن رينيه كلامار وأنا وغيرنا - وهنا أخذت تنظر إلي كمن يتفرس في معرفة الأشياء - ذكروا أكثر من مرة أنك جديرة بأن تحوزي إعجاب الناس، ومع ذلك فأنت لست من صنع إنسان)

(وابتسمت ميني شاكراً، ولكنها أجابت في منطق معكوس: (ولكنني على أي حال لست سمكة).

فتشبثت برأيي وقلت:

(على أنني قلت إن هذه السمكات جديرة بأن تحوز إعجاب الناس، لأنها سمكات غير حقيقية، هي سمكات تقليدية.)

فحدقت ميني في أولاً، ثم في السمك ثانياً، ثم عادت تحقق في، ثم صفقت بيديها وقالت:
(أصحيح هذا؟)

وكانت ميني من أولئك الذين يعيشون وينمون ولا يتعدون دور الطفولة. ومثل هؤلاء يسهل إغراؤهم وقيادتهم، وليس عندهم من الأشياء ما لا يمكن تصديقه والإيمان به إذا ما قيل لهم ذلك. قالت ميني:

- ولكن كيف تتحرك هذه الأسماك؟

فقلت لها: (إن الكهرباء مسلط عليها.)

فالتفتت بسرعة إلى الأسماك وانحنيت على الصندوق تدقق النظر إليه. وكانت يداها المرتجفتان مثبتتين على موضع قلبها. وقالت

ولكن كيف تيسر لها كل ذلك؟ إنها تفتح فاهها. والصغيرة هذه تتحاشى الكبيرة في سيرها نحو سطح الماء. وهناك في الركن الآخر اثنان يتقارضان القبل، كأنهما شقيقان... أي. أي... وفي القاع السمكة الكبيرة وقد اهتزت المياه من فوقها كفرس البحر الذي رأيناه في حديقة الحيوان، وكان رينيه معنا)

- (نعم إنه لشيء عجاب... ولكن أناشذك الله ألا تمسي هذه المياه فان الكهرباء سارية فيها.)

فاسترجعت ميني إصبعها من فوق سطح الماء وقالت: (وهذه السمكة وجارتها ألم ينظرا إلي الآن بنظرات حادة؟)

وأبصرت صديقي وقلت:

(ها هو ذا رينيه.)

فقالت هي:

(أي رينيه، يجب أن تنظر إلى هذه الأسماك!)

وقلت مخاطباً رينيه:

إن ميني تعتقد أن هذه الأسماك حقيقية.)

وكان رينيه يعرف طبعي جيداً، ومعرفته بميني تكاد تكون نوعاً من اختصاصه. فاندفه يشاطرني هذريولم تجد ميني طيلة ذلك اليوم شيئاً آخر تفكر فيه. ثم قالت فجأة:

- (وكيف تكون هذه؟ أصله هي أم لينة؟)

- (ماذا تعنين؟)

- (الأسماك الصناعية)

- (هي لينة كالحقيقية)

- (وماذا تصير لو أنها أُخرجت من الماء؟)

- تصير كالأسماك الحقيقية بالضبط، إذ تبغي استنشاق الهواء وترتجف بضع مرات ثم تجمد ولا تتحرك كأنها ميتة.)

- (ثم بعد ذلك؟)

- (ثم بعد ذلك... تنتن وتفسد)

- (وإذا ما دفعها إنسان إلى هر؟)

- (يلتهمها كأنها سمكة حقيقية)

وفي المساء التالي جلست وإياي في اليهودي تنتظر رينيه، فقد ذهب لشراء بعض لفافات من التبغ

- (ميني، ما دامت هذه الأشياء تشغل بك فسأفصح لك عن سر عظيم. بعد أن اخترعت الأسماك الصغيرة، حاول العلماء خلق أحياء أخرى فاخترعوا العصافير مثلاً. عصافير صغيرة تحفظ الغناء)

- حقاً، إنني شاهدتها وهي من صنع (نورمبرج) من أعمال ألمانيا، ويجب أن تملأ الزنبرك إذا ما أردنا سماع غنائها. وبرغم أنها تحرك المنقار والرأس فأنها لا تطير، وهي صلبة كالمعادن.)

- كل ذلك صحيح يا ميني. ولكن العصافير الأولى كانت كالعصافير الحقيقية تماماً. كانت كالأسماك التي شاهدناها في طريق اللوفر. والآن أفضي إليك السر العظيم، ولقد أردت أن أدلي به إليك من قبل ولكن الفرصة لم تسنح لي. قلت لك خلق العلماء

- أحياء أخرى ثم... ولكن يجب أن تقسمي ألا تذكرى ذلك لأحد)
- (حسن، أقسم على ذلك)
- (ثم... ثم خلقوا آدميين)
- (يا إله السماء...!)
- (خلقوا اثني عشر شخصاً: ست رجال وست نساء)
- (يا إلهي... وكيف كان هؤلاء؟)
- (هم كتلك الأسماك. هم مثلي ومثلك)
- (ولكن أين هم الآن؟)
- (هذا ما لا يعرفه أحد. وهذا حفظ السر. فبعد أن خلقوا خرجوا من المعامل. وأخذ الناس يبحثون عنهم دون جدوى. ولا يعرف غير الله موضعهم)
- (ولكنهم تدهنوا بالملابس؟)
- (طبعاً!)
- (ومتى كان ذلك؟)
- (منذ أكثر من سنة)
- (وأين ساروا؟)
- (هنا، هنا في باريس. وكانوا كاملين في كل شيء، ولا يمكن تمييزهم من الآدميين الحقيقيين. تصوري يا ميني أننا قد نكون تقابلنا مع أحدهم دون أن نعلم)
- (لا، لا. إنني أشعر بالشيب يدب في رأسي، لقد اعتزمت إلا أخرج من المنزل، ويجب على الناس أن يبحثوا عنهم. ولماذا لا يعثرون عليهم؟ وواجب هؤلاء أن يقولوا بأنهم ليسوا آدميين حقيقيين)
- (ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن ذلك كله. إنهم يعتقدون أنهم من لحم ودم كبقية خلق الله)
- واختل تفكير ميني، ولم أفصح أنا ورينيه في تشتيت تلك الأفكار الخبيثة عنها. وقد أقسمنا لها بكل عظيم (أننا لم نبغ إلا الهذر من كل تلك الأمور)
- (هذا تذكرانه لي الآن حتى أهدأ بعض الهدوء، ولكني أعرف وأعتقد اعتقاداً جازماً بأن كل ما ذكر لي قد وقع، ومن يدري؟ ربما

كان ذلك الرجل القادم.... لا، لا... لنرجع ثانية إلى المنزل
وكانت كلما مرت برجل في طريقنا ظننته صناعياً. وفجأة تأوهت،
وأحجمت عن السير.

ورأت في بيتها ملجأها الوحيد، ولتبق هي في غرفة منه نائية،
أو في ركن منه مظلّم. ولم تتزحزح هذه الأفكار عن مخيلتها، وقد
تراكمت فكانت أثقل من جبل، وفي الليل كانت تنزعج وتصرخ في
منامها. فكنت أنا ورينيه نوقظها. وكنا نقسم لها أغلظ الأيمان من
جديد. غير أنها كانت تعتبر كلامنا غير أهل للإجابة عليه، وبدأ الشك
والسوداء يستوليان عليها. وأخيراً قال لها رينيه:

- (ماذا يحزنك يا ميني؟)

- ماذا يحزنني...؟ لا يعرف أحد إذا كان الذي ينظر إلي أو الذي
يكلمني هذا من لحم ودم. لا، لا، أولى لي أن أموت! ثم أدارت رأسها
في حركة ميكانيكية وقال:

- (وأنتما لا تعرفان...)

ولم يكن في مقدرة أحد أن يغريها بترك باريس. ولماذا؟ قد
يكونون متفرقين في بقية العالم

وكانت لا تود رؤية أحد حتى خادمتها الصغيرة لم تطق رؤيتها في
المنزل. ثم لزمّت الفراش لا تفارقه

وكنا أنا ورينيه نتناوب السهر عليها، ونقدم لها الطعام فلا تأكل
منه إلا يسيراً. وكانت حياة ملؤها وخز الضمير. وعند ما كانت تغفو
كنا نستدعي الأطباء سراً، ليشيروا بعلاج يرجع لها رشدّها. ولكن
تلك الفكرة التي لازمتها كانت توغل في الصميم، فتركزت أفكارها
حول نقطة واحدة...

(ربما كان أحدهم من رأيته أو حادثته...)

وكانت حياة كلها نكد، يزيد في ظلماتها الذنب المشترك. وكنت
أنا ورينيه نمضي الساعات دون أن ننبس بكلمة أو ينظر أحدهنا إلى
صاحبه.

وفي ذات يوم تولانا الرعب من فكرة طارئة. ماذا يكون الحال
يا ترى لو خيل إلى ميني أن أحدها أو كلينا من أولئك الرجال

المصنوعين، الذين يفزع منهم الشياطين لمجرد ذكرهم أو تخيلهم.
ألم نكن نحن أول من قال لها عن هذا الاختراع السخيف؟
ولكن هذه الفكرة لم تستول عليها، بل اكتسحت مخيلتها فكرة
أشد خطراً وأبعد غوراً

كانت ليلة من ليالي الربيع. وقد غرقت ميني في النوم الهادئ
ففرحنا. وفتحنا النافذة، وأطللت أنا ورينيه على الطريق نتسلى
برؤية النجوم مرة وبإمعان النظر في الظلام المخيم على جوانب
الشارع مرة، وتارة كانت تستلفت أنظارنا الأنوار الحمراء التي
تضيء أسماء الحوانيت، وتارة أخرى تسترعي أبصارنا الإعلانات
الوضاءة...

وعلى حين سمعنا صوتاً جهورياً مرتجفاً. ولما نظرنا خلفنا
وجدنا ميني واقفة فوق سريرها باسطة ذراعها، وتكاد تنخلع
من الرعدة. فأسرعنا إليها ولكنها فزعت منا. وقذفت بنفسها من
السرير فارتطمت بالمرأة. وحدقت أولاً في قميص نومها ثم في قبضة
يدها. ثم دفعت وجهها ليلتصق بالمرأة. ونظرت إلى صورتها وحدقت
فيها كأنما تريد اكتشاف كنه ما بها

- (أي نعم، إن الأمر لهو كذلك. إنني أراه جلياً واضحاً. نعم، إنني
أنا هو. إنني لست من لحم ودم. كلا، كلا. إنني أنا ذلك الإنسان
الصناعي وما كنت أدري ذلك من قبل)
فصاح كل منا:

- (ميني!)

- (لا إنني أفهم الآن كل شيء. إنني متأكدة إنكما لن تعرفا ذلك.
.. ولكن ماذا، أنا فاعلة الآن؟ وماذا في وسعي أن أعمله؟ سامحني
يا رينيه! الذنب ليس ذنبي)

حاولنا أن نمسك بذراعها، وهي تحدق في الفضاء. . ولكنها
رفعت يدها وأشارت نحو الباب وقالت:
- (ماذا هنالك؟)

- لا شيء، لا أحد يا ميني، هدئي روعك!

- ولكن هنالك... هنالك، من هنالك...؟ انظروا انظروا

من هو؟

وشع ضوء مخيف من عينيها كسا وجهها ضياء جافاً، وانطلقت علينا الحيلة، وذهبنا إلى الباب لنهدئ من حدتها. وما كدنا نصله حتى التفتنا إلى الخلف دون سبب، ولكن بعد أن فات الأوان، إذ وقفت ميني كعفريت من الجن على حافة النافذة. فلم نتمالك من الصراخ وهرعنا إليها. ولكنها كانت قد قذفت بنفسها إلى الشارع. ولم يبق منها إلا قطعة من قميص نومها معلقة في يد رينيه. وساد السكون ثواني حسبناها ساعات وإذا بجسدها يرتطم بالإسفلت فيقضي على أنفاسها وعلى هواجسها.

هاكم قبعة أخرى

لويجي براندللو

بعد أن قضى ديجو برونو ساعات طوالاً يتمشى، بلا قصد ولا مأرب، على ضفاف نهر التير، في ذلك الحي الهادئ المسمى براتي دي كابتلي في مسيرة جدران الثكنات، ومبتعداً قدر جهده على ضوء المصابيح، أحس فجأة أن التعب قد نال منع فتوقف هنيئة تحت ظل شجرة، ثم صعد البرابي المطلة على النهر. وهناك جاس موليا وجهه تلقاء النهر، ومدلياً رجله من فوق السور. ومن تحته الماء يتدافع في جريانه بصوت مهم غامض، وقد انعكست على صفحته القاتمة أضواء مرتعدة مضطربة أرسلتها مصابيح الضفة المقابلة وشمل السكون المكان، فلم يكن ينبعث من المنازل المقابلة صوت، ومن وراء تلك المنازل، على بعد شاسع كان يبدو شبح مدينة روما. وفي السماء قطار يتدافع من السحب الصغيرة، ذات اللون الرمادي الشاحب. وكأنما كانت تهرول مسرعة، لكي تلي دعوة داع قد أهاب بها من المشرق إلى اجتماع غامض عجيب، وقد اشرف القمر من فوقها كأنه يستعرضها وهي تمر سراعاً بين يديه. جلس الفتى من غير حراك، وقد ولى وجهه شطر السماء، محدقاً في تلك السحب. التي استطاعت بجريانها السريع أن تكسب الليلة المقمرة نشالها وحركة. لا شك أن هذا أحد الناس. قد وقف ليرقب مثله منظر الليل ولكي يتأمل في تلك السحائب وهي تمضي سراعاً، وإلى القمر في السماء إذ يستعرضها، وإلى تلك المياه المظلمة القاتمة، وما انعكس عليها من شعاع مرتعد مضطرب. ثم تنهد تنهد الحزين، فان إحساسه وجود رجل آخر ضايقه، وافسد عليه تلك اللذة الحزينة التي يبعثها شعوره بالوحدة، ومن حسن الطالع انه كان يجلس في الظلام، فعسى القادم ألا يراه، والتفت لكي يستوثق من

الأمر. وجعل يحدق في هذا الغريب. يا عجباً! ما خطب هذا الرجل وقد وقف جامداً فريداً وحيداً؟ ثم ما هذا الشيء الذي بيده كأنه حقيبة صغيرة؟ لا ليست هذه حقيبة. بل قبعة... وبعد فماذا عساه أن يفعل؟ رباه! انه يصعد السور.. أتراه يريد أن يرتكب.. ويلاه.. ما هذا؟ وتراجع ديجو بغريزته إلى الوراء، مغمضاً عينيه، حابساً نفسه، وماداً يده إلى الأمام كأنما يدفع شراً، وهو يتوقع سماع صوت ذلك السقوط المروع في الماء الذي تحته. حادث انتحار... يا عجباً.. كيف يجوز مثل ذلك؟ ثم فتح عينيه، وجعل يحدق في الماء تحديقاً شديداً وهو يحاول أن يخترق ببصره أعماقه السوداء. فلم تقع عيناه على شيء... الصمت شامل والهدوء باسط جناحيه.. لا صياح ولا نداء ولا صوت. فيا عجباً! ألم يره أحد، ولم يسمع صوته إنسان؟ هنالك تحت لجج النهر رجل يغرق، ولعله الآن يكافح في يأس وفي جهد... كل هذا يجري وهو جالس في مكانه مرتعداً عاجزاً خائراً!.. أما يحمل به أن يبادر فيطلب النجدة! أو يصيح بأعلى صوته ولكن هيهات.. لم يعد يجدي الصياح والاستنجاد! لقد رضي أن يبقى مختبئاً في مكانه المظلم، تاركاً ذلك المسكين يغرق!. جمد في مكانه كالصخرة الصماء، حابساً نفسه، سائلاً نفسه من أن إلى أن: أحقا قضي الأمر.. قضي الأمر؟ وبعد حين جعل ينظر فيما حوله.. لعل الأمر كله حلم رآه! إن كل شيء باق كما هو لم يتغير: المدينة راقدة تحرسها المصابيح، وسط سكون عميق كما كانت من قبل، والأضواء ترتعد على صفحة الماء القاتمة بأشعة ثعبانية ملتوية.. لم يتغير في هذا المنظر كله سوى شيء واحد: فلقد كان على عمود مصباح من المصابيح قبعة الرجل بقيت هناك حيث تركها، وكان المصباح يرسل عليها شعاعاً شاحباً مشؤوماً.. وكان إليه أن تلك القبعة تؤنبه وتتهمه.. فأخذ يرتعد فرقاً. ثم نزل مسرعاً من فوق البرابي، وجعل يعدو ومنزله مستتراً بظلام الليل. (ديجو! ديجو! ما خطبك؟) (لا شيء يا أم! وما عساه أن يكون خطبي؟) (لست ادري أمها العزيز.. غير أنني.. حسبتك.. لقد جئت متأخراً الليلة فهل أهني لك حجرتك الآن؟) فالتفت الفتى

إلى أمه مغضباً، وقال: يا عجباً لك! انك! تسأليني هذا السؤال كل ليلة من ليالي عمري!) وكان هذا الرد كأنه سوط يستحثها، فاندفعت العجوز الصغيرة الجسم نحو الحجرة وهي تجر إحدى رجلها. اتبعها الفتى نظرات قد امتزج فيها الغيظ والكمد ورآها وهي تختفي آخر الدهليز، فتتنفس الصعداء إشفاقاً عليها، ثم لم يلبث أن عاود الضجر والكمد. وقد بقي ينتظرها - دون أن يعرف للانتظار سبباً، ولا ماذا عساه أن ينتظره - في هذه الحجرة المظلمة، ذات السقف القذر والجدران الممزقة الورق، التي اتخذتها الأم لصناعة الثياب حجرة صغيرة كئيبة قد غصت برخيص الأثاث، وبعدد الحياكة المختلفة: آلة للخياطة، مقص مستطيل، تماثيل سخيفة ذات صدور ضخمة، شريط مقاس، قطعة من الطباشير، أكداش من صور الأزياء ذات الابتسامة الكالحة... وكلها أشياء قد ألف ديجورؤيتها فلم تعد تستلفت نظره. لقد عاد إلى منزله، يحمل في رأسه صورة كأنها منظر شاهدة في مسرح، صورة تلك السماء العجيبة، تغشاها السحاب الصغيرة الخفيفة. ومنظر النهر القاتم، قد انعكست في صفحته أضواء المصابيح والمنازل العالية على الضفة المقابلة، وذلك الشبح البعيد لمدينة روما، وذلك الجسر الممدود. ثم تلك الأقنعة! كانت أمامه صور كل تلك الأشياء الجامدة، حاضرة لكنها غائبة. وكذلك هو. لقد كان حاضراً غائباً. جلس في مكانه المظلم يرقب الرجل وهو يغرق. فكأنه لم يكن هناك، وكأنه كان غائباً، فلم يحرك ساكناً، ولم يفتح فمه، ولم يستنجد. والآن قد رجع إلى داره وقد ملكته الحيرة، واستولى عليه الدهول، كأنما كان ما سمعه ورآه لم يكن سوى حلم نائم. لم يلبث أن رأى قطعة كبيرة، ذات فروة رمادية ناعمة. وثبت فوق المائدة، وجعلت تنظر إليه بعينين خضراوين خاليتين من كل معنى، هذه قطعة الدار، اتخذوها لصيد الجرذان. غير أنها منذ أيام انتزعت من الجدار قفصاً به عصفور جميل. ثم لم تزل تحتال دائبة، تدفعها القسوة والنهم، حتى استطاعت أن تخرج العصفور من بين القضبان. ثم التهمته. وقد حزنّت أمه لهذا حزناً شديداً..

بل انه هو أيضا قد آلمه أن يفترس ذلك العصفور المسكين على هذه الصورة، أما القطة، فهل تأثرت أو أحست ندماً على ما ارتكبت؟ كلا! بل ها هي ذي جالسة في سكون وطمأنينة، كأن لم تقترف ذنباً ولئن رفعها بعنف على المائدة فإنها لن تعرف لهذا الاضطهاد سبباً. عجباً ألا يستطيع هو أن يكون مثلها؟ إلا يمكنه أن يقترف الإثم كما فعلت هذه الهرة، ثم ينسى كل شيء بعد ارتكاب الجريمة بلحظة؟ إن الآفة الكبرى التي تستحقه وتعنيه هي انه يتذكر... يتذكر أبداً ويعلم أن الناس سيذكرون أبداً. لكنه يخيل إليه انه في هذه الليلة يرى الأمور في ضوء جديد... مثلاً: نظرته إلى أمه... انه لم ينظر إليها الليلة كأنها أم... بل امرأة عجوز كأمثالها من النساء... ذات جسم ضخم وانف غليظ قد اعوج قليلاً أحد جانبيه. ولها شامة كبيرة في قاعدة منخرها الأيسر، وخداها الشاحبان تغشاهما خطوط زرقاء من الأوردة الدقيقة. وقد تدلى كل خد في ترهل وضعف... . وقد جعلت تنظر إليه بعينين متعبتين خائرتين. وحين حدق في وجهها أطرقت بعينها، وقد ملأها الخجل والعار... ولكن مم تخجل الأم؟ لقد كان يعرف جد المعرفة سر هذه الخجل، وهذا الشعور بالعار. وأخيراً ضحك ضحكة الساخر. وقال ((عمتي مساءً أمها!)) وانطلق إلى حجرته، واغلق بابها.

جلست الأم إلى مائدة الحياكة، لكي تتم خياطة ثوب، ستحضر صاحبتة في طلبه في الصباح. لكنها لم تجلس لتتم عملها فحسب، بل لكي تفكر قليلاً... ماذا عساه قد جرى لفتاها الليلة؟ طالبت غيبته ولم يرجع إلا متأخراً. وكانت تغشاه رعدة. ووجهه شاحب كأنه خرقة بيضاء... وليس الشراب سبب هذا الاضطراب. إنها لم تنشق من فمه رائحة الخمر وليس ديجو من الشاربين. ومع ذلك، فليس من شك في انه قد ألم به اليوم حادث. أترأه قد التقى من جديد بأولئك الرفقاء الأشرار. الذين كانت صحبتهم وبالأعلى عليها ودماراً. ذلك ما كانت تخشاه.

نهضت من كرسيها، ومشت على أطراف قدميها حتى وصلت إلى باب حجرته. وأنصتت، فلم تسمع صوتاً لعله إذن قد آوى إلى

فراشه وقد غشيه النعاس. . عادت إلى حجرتها. وأخذت تجد في إتمام عملها. كانت من آن لأن تنزع المنظار عن عينها وتمسحه. لقد كانت من قبل وليس لها مورد رزق سوى ما كانت تمنحه من معاش كإحدى الأرامل. وكانت تجد في هذا كفايتها. أما الآن وقد فقد ديجو منصبه وأضحى بلا عمل. فقد اضطرت إلى السعي والاكتساب. وفوق هذا قد خطرت لها فكرة: وهي أنها تستطيع بفضل جدها واقتصادها أن تجمع من المال ما يكفي لإرسال ديجو إلى أمريكا. إذ لا بد للفتى من فرصة كي ينشد حظه من جديد. أما ها هنا في إيطاليا فقد سدت في وجهه السبل، وهذه البطالة التي اكراه عليها إكراهاً توشك أن تأكل روحه وتقضي عليها. أمريكا إذن.

إن أمريكا هي وحدها المكان الصالح له، فلا بد من إرساله إلى أمريكا ولو كان في هذا موتها وفناؤها. لا بد أن يفتح لولدها باب الحظ. . . ولدها هي. . . ذلك الفتى الكريم. . لله ما أطيبه! وما أجمله، بل وما أقدره وما أذكاه! ألم يكن من قبل قادراً على الكتابة والتحرير. حتى لقد نشرت له الصحف بعض ما كتب؟ ثم ما جرمه الذي اجترم، وما ذنبه الذي اقترف؟ لم يكن الأمر سوى ضرب من عبث الشباب، والذنب فيه راجع إلى لأولئك الرفقاء الأشرار، وإلى ذلك الروسي أو البولندي، أيا كان وأيا كانت جنسيته. . ذلك الأجنبي القذر، ذلك السكير المهيمن، الذي جاء إلى روما لكي يسوق أبناء الأسر الشريفة المبجلة إلى الدمار والعار، فوا أسفاه على أولئك الفتيان البله، كيف ضاع رشادهم، وضلوا عن طريق الصواب، إذ دعاهم ذلك الأجنبي الكثير المال إلى منزله، فطاشت أحلامهم ما بين كؤوس الخمر والنساء وضروب اللهو. . ويصل ذلك الروسي المقامر على أن يأتي بالورق ويلج عليهم أن يلاعبوه، أجل كان يلج عليهم إلحاحاً. ولئن كان قد خسر نقوده. فذلك جزاؤه على إصراره وعناده. لكنه بعد هذا يذهب ويا للعار! فيتهم أصدقائه بالغش والتزوير. ثم يسعى في مقاضاتهم لكي يجلب إليهم الدمار مدى الدهر. . سمعت الأم صوتاً كأنه صوت بكاء مكتوم ينبعث من حجرة ابنها، فنادته: (ديجوا!) فلم يرد جواباً. أنصتت

مرة أخرى، وألصقت إذهنها بالبواب، انه مستيقظ، فما عساه يصنع الآن. انحنت ونظرت من ثقب المفتاح. . رحماك اللهم! انه يقرأ. . عاد إلى مطالعة تلك الصحف الكريمة التي اشتملت على تفاصيل المحاكمة، فلماذا. . لماذا يريد أن يعود إلى قراءتها. . وفي هذه الساعة من الليل؟ ونادته بصوت عال: (دييجو!) ثم فتحت الباب فالتفت إليها، وهو يثب فزعاً. وقال: (ما الخطب يا أم، ما بالك لم تأوي إلى فراشك!) قالت: (وأنت، ما بالك لم ترقد في فراشك بعد؟) فتكلف الابتسام وجعل يمد ذراعيه. (أنا؟ إني أتسلى قليلاً) فقالت العجوز وهي تعصر يديها عصراً: (دييجو! ديجو! احرق هذه الأوراق! استحلفك أن تحرقها. . لماذا تريد أن تؤذي نفسك؟ ماذا يجديك هذا كله؟ انس ذلك الحادث تماماً!) فنظر إليها وهو يضحك. (شيء بديع! . كأني إذا نسيت ذلك الحادث فقد ينساه الناس جميعاً! ما أبدع هذا! وما أسهلها وسيلة! نسى الحادث كلنا في لمحة الطرف! ثم نتساءل هل حدث شيء؟ لا... لا... لا شيء مطلقاً... السجن! كلاً لم يكن هنالك سجن. بل كان ما في الأمر أني سافرت... في إجازة خارج القطر... إجازة بديعة دامت ثلاث سنين) ثم قال مغيراً لهجته: (يا أماه! هذا عبث لا طائل تحته. فلنتكلم في موضوع آخر. ألا ترين أني قد قضى على القضاء المبرم؟ ألا ترين كيف تنظرين - حتى أنت - إلى؟) (لا يا ديجو... لا... انك على خطأ وكل ما هنالك أيها العزيز إنني كنت انظر... اجل كنت انظر... إلى ثيابك... فقد باتت رثة. لا بد لك الآن من بذلة جديدة.) فنظر إلى ثيابه نظرة فحص وتحقيق. ثم ضحك وقال: (إذاً أنت تظنين أن هذا هو السرف في تحديق الناس بي كلما رأوني! لست أنكر أن ثيابي قد امتدت إليها يد البلى قليلاً، ولكن هذا القدر القليل ليس بشيء ذي خطر وأنا شديد الحرص عليها. البسها في عناية، وامسحها واكويها. والحقيقة أن مظهري حين البسها لا بأس به مطلقاً. فهو مظهر الرجل الفاضل، الذي يستطيع أن يتخذ مكانه في العالم على غير استحياء ولا خجل... فدعى هذا الكلام! فليس ورتءه من طائل!... أماه ألا ترين انه قد قضى على القضاء الأخير) ثم أشار إلى

الأوراق التي بين يديه: (أن البلاء كل البلاء، هنا، في هذه الأوراق وحقيقة الأمر أننا اطلعنا الجماهير على لعبة ورواية مدهشة. فهل تحسبن انهم ينسونها بكل هذه السرعة؟ لا أظنهم جاحدين بهذا القدر... ويا لها من رواية تلك التي أريناهم... رواية تتمثل فيها الأرواح عارية دنيئة ملوثة، وهي تحاول أن تختفي عن الأنظار، يوم كان كل منا يجذب رداء المحامي الذي يدافع عنه لكي يستربه عاره، اجل كانت رواية مدهشة رائعة. أتذكركن كيف ارعد الناس ضاحكين في ساحة القضاء حينما سمعوا ما فعلناه بذلك الروسي يوم أن ألبسناه الزي الروماني القديم وألبسناه الخفين، على ما له من انف افطس ووجه منقط، ورأس مستدير، ومنظار ذهبي، ثم جعلنا ندفع ذلك الخزير السمين دفعاً، ونضرب رأسه بخفيه وكلما أوسعناه ضرباً ازداد طرباً. لأنه قد اخذ من السكر) (دييجو! استحلفك!) (اجل كان سكراناً، ونحن الذين أسكرناه.) (لا. لا. لم تكن أنت الذي فعل هذا، بل الآخرون...) (وأنا أيضاً... أتعلمين يا أماه أن هذا كان كله من سبيل المزاج. لقد كنا نعبث به ونمزح. ثم تناولنا الورق لنلعب، وكان من السهل أن نريج. والرجل قد ذهب بعقله الخمر.) (دييجو! استحلفك!) (قلت لك إننا كنا نمزح، هذا وحقك يا أماه، هو الصديق الذي لا مرية فيه، ولكني حين ذكرت هذا في دار القضاء ضج الناس بالضحك، اجل حتى القاضي... بل لقد كان هو أشدهم ضحكاً. ضحك الجميع من قلبي هذا... الجميع... حتى رجال الشرطة. ومع ذلك فقد كان هذا هو الحق. فلقد كنا نرتكب الغش، ونحن لا ندري. وإذا كنا ندري فما كنا نرى أنفسنا إلا مازحين وهل كانت سوى أموال رجل قدر معتوه، وكانت تنصب من جيبه انصباباً، كما انصبت من جيوبنا فيما بعد. حيث كنا نبذرنا تبذيراً في بلاهة وجنون، حتى لم يبق لدينا منها درهم واحد.) ثم التفت إلى خزانة الكتب واخرج منها كتاباً. (هذا كل ما بقي لي من تلك الأموال. فقد مررت يوماً ببائع كتب واشترت منه هذا الكتاب.) ثم التقى بالكتاب على المائدة فإذا هو ترجمة فرنسية لكتاب جون رسكن المعروف (تاج من أغصان الزيتون).

وجعل يحدق في السفر مطبقاً حاجبيه. عجباً كيف خطر له في تلك الأيام أن يشتري هذا الكتاب؟ لقد اعتزم إلا يعود إلى المطالعة، وإلا يخط حرفاً أبداً. وما دعي إلى الذهاب لذلك الروسي سوى عزمه على أن يخمد جذوته، وأن يقتل في نفسه حلماً كان يملؤها: حلماً بأنه سيغدو يوماً كاتباً ومؤلفاً. ذلك كان حلم شبابه. ولكن الفقر الأليم الذي نزل بأسرته جعل تحقيق هذا الحلم أمراً محالاً. ولهذا صبح عزمه على أن يقتله قتلاً. وقفت العجوز تتأمل هي أيضاً ذلك الكتاب الغريب، وبعد لحظة قالت في شيء من التردد: (أترى يا ديجو... لو أنك عاودت الكتابة) فنظر إليها نظرة كريمة كئيبة، انقلبت لها سحنته وشاهت صورته. لكنها عادت إلى الكلام وقالت: (ماذا يضرك أن تحاول؟ ماذا يدعوك إلى اليأس، وأنت بعد فتى لم تتجاوز السادسة والعشرين ومن يدري لعل لك في الحياة حظاً جديداً ننسى به ما قد مضى..) فقاطعتها، وهو يخاطبها في سخرية وتهكم: (نعم حظ جديد ما أكثر الحظوظ الجديدة اجل ولعمرك لقد أصبت الليلة حظاً جديداً. فلقد شاهدت بعيني رأسي رجلاً يلقي بنفسه في النهر. وجلست في مكاني أراقبه دون أن أحرك ساكناً.) (ماذا تقول يا ديجو؟ أنت شهدت حادث انتحار الليلة؟) (اجل أنا شاهدت رجلاً ألقى بقبعته على البرابي. ثم صعد وألقى بنفسه في النهر في هدوء وسكون وجلست أنا في موضعي، منصتاً لصوت سقوطه في الماء، وكنت على بضعة خطوات منه، جالساً في ظل شجرة، وكان كل ما فعلته أن جلست في مكاني وتركته يغرق. اجل ذلك كل ما فعلت ثم استولي على الذعر فجأة، حين أبصرت قبعته التي تركها خلفه. فلذت بالفرار) (أنت تعلم يا عزيزي انك لا تعرف السباحة. فاني لك أن تقوم بمساعدته وإنقاذه؟) كان في وسعي أن أصبح واستنجد. أو على الأقل أحاول إنقاذه. فقد كان إلى جانبي درجات من الحجر نازلة إلى النهر، لم يكن بيني وبينها غير مترين. أتعلمين إنني رأيت هذه الدرجات. اجل رأيتها في وضوح ومجلاء.. ولكنني تجاهلت رؤيتها. ثم لم تك إلا لحظة حتى قضى الأمر وغاب عن الإبصار) (ألم يكن بالمكان أحد سواك؟) (كلا لم

يكن بالمكان غيري) (لا بأس عليك يا ديجو وماذا عساك أن تصنع وحدك. فلا تبتئس انك متعب منهوك القوى. ولقد هذا كل ما هنا لك ولقد أخذت ترتعد لسهول ما رأيته الليلة. والآن فلتذهب إلى فراشك ونم لكي تنسى كل شيء) وتناولت يده في شيء من التردد وجعلت تمسحها بكفها. وأجابها على كلامها بهزة رأسه. وقال لها وهو يبتسم (عمتي مساءً يا أماه!)

(نم هانئاً يا بني!) لقد اثر في نفسها انه سمح لها بان تمسك يده وتمر عليها بكفها مراراً. وجعلت تمسح عينها من خلف مناظرها. ثم أطفأت المصابيح وذهبت إلى فراشها وهي تفكر في تلك اللحظة التي سمح لها فيها أن تلاطفه تلك الملاطفة. لم تمض ساعة حتى كان ديجو برنر في مجلسه الأول على البرابي، في ظل تلك الشجرة. وقد جلس كما كان يجلس من قبل ناظراً إلى النهر، ومدلياً رجله. وكانت السحاب لم تزل تغشى السماء في لونها الرمادي الشاحب وكأن لم يتغير شيء مطلقاً. بل لقد تغير شيء واحد: فان القبعة قد اختفت. واكبر الظن أن أحد رجال الشرطة قد رآها في تجواله فأخذها. نزل ديجو فجأة عن البرابي ومشى نحو الجسر. ثم انزع قبعته عن رأسه. ووضعها في نفس المكان حيث كانت قبعة ذلك الرجل الغريب. ثم تبسم وقال: (وهاكم قبعة أخرى!) وكأنه ما فعل هذا لا ليمزح؛ كأنما أراد أن يمازح رجال الشرطة. وعاد إلى مكانه في ظل الشجرة. وجلس برهة يتأمل القبعة، معجباً بمنظرها وكأنه لم يكن له وجود. ثم اندفع فجأة يضحك ضحكاً عالياً وحشياً. لقد بدت له القبعة كأنها فأر، وكأنما هو قطعة ترقبها. وجعل يتدلى من البرابي شيئاً فشيئاً. ملقياً بنفسه إلى النهر على مهل. وقد امسك الحاجز الحجري بقبضتيه. فأحس بقلبه يثب وشعر رأسه يقف، ثم أحس بقبضتيه. وقد أخذتا في الارتخاء. وانفجرت أصابعه؛ فهوى من النهر.. إلى الفناء.؟

كانديلورا

لويجي بيراندللو

انزل المصور الفنان (نين بابا) حافة قبعته بيديه الغليظتين ساعة ان قال لزوجته (كانديلورا): (لا فائدة ترجى. صدقيني يا عزيزتي أن لا فائدة ترجي.)

وصرخت كانديلورا مهتاجة: (وأي فائدة ترجى إذا؟ افى معاشرتك ليقضي علي من الغضب والمعاندة؟)

ورد عليها نين بابا في هدوء: (نعم يا حبيتي. ولن دون أن يُقضي عليك. بقليل من الصبر. أنظري، سأذكر لك شيئاً. (شيكو).....)

- إنني أمنعك من تسميته بهذا الاسم.)

- (ألا تسمينه كذلك؟)

- (نعم، ولأني أنا أسميه هكذا)

- (هه... حسن. لقد ظننت أني أرضيك بهذا. أوجب أن أسميه

البارون؟ البارون. أريد أن أقول إن البارون يحبك يا حبيتي

كانديلورا، ويبذل المال في سبيلك...)

- (في سبيلي أنا يبذل المال؟ يا سافل! ألم يبذل من أجلك مالاً

أكثر؟)

- (لو أنك تركت لي الكلام... هو يبذل المال من أجلي ومن

أجلك. ولكن انظري، ما معنى أنه يبذل من أجلي مالاً أكثر؟ كوني

منطقية مع نفسك. إن معنى ذلك أنه لا يقدرك إلا لأنك في ظلي

الذي أخلعه عليه. هذا ما لا يمكن إنكاره.)

وتميزت كانديلورا من الغضب وقالت: (ظل؟ من شعاع لمثل

هذا...)) ورفعت قدمها مشيرة إلى حذاءها، ثم استطردت قائلة: (لم

يلحقني منك إلا العار ولا شيء إلا العار!)

وتبسم نين بابا، اجب بهدوء أكثر من ذي قبل: (كلا، أستمحك

المعدرة: إن العار يلحقني أنا، فيما إذا ما تكلمنا عن العار. إنني الزوج. وهذا أهم شيء، صدقيني يا لوريتا. ولو لم أكن زوجك، ولم تعيشي في ضيافتي تحت هذا السقف، لفقدت كل جاذبية، أنفهمين؟ هنا يمكن للجميع أن يدللوك دون أن يخشوا عقاباً. والجميع يتمتعون متاعاً عظيماً بقدرما تلحقين بي من عاروشنار. وبدوني يا لوريتا تصبحين شيئاً تافهاً شديد الخطورة، وما كان شيكو... البارون ليبذل... ماذا أنت فاعله؟ أتبيكين؟ لا، انظري..

.. إنني لا أقوال إلا هذراً.)

واقترب نين من كانديلورا. وأراد أن يسمك بذقنها، ولكن لوريتا قبضت على ذراعه، وفتحت فاهها كحيوان مفترس وعضته، وطالت عضتها دون أن تتهاون. وكانت أسنانها تغور باستمرار في الذراع، بينما كان هياجها يزداد. وانحنى نين حتى يمكنها من ذراه، وأطبق على أسنانه وابتسم هادئاً للألم المروع الذي سببته له. وازدادت عيناه ضياءً واتساعاً. ولما أن انفكت أسنان كانديلورا عن ذراعه - وكأن حملاً قد أزيح عنه - أحس بأن موضع ما أكلت جرح من النار، ولم ينبس بكلمة. وأخرج في هدوء ذراعه من ردائه، ولكن القميص لم يطاوعه، إذ كان قد غرز في اللحم الحي. وانطبعت على كم القميص بقعة من الدم، دائرة دموية، هي دائرة أسنان كانديلورا القوية. وكان أثر الواحدة بجانب الأخرى ظاهراً، وأخيراً تمكن نين من إخراج كم قميصه، والابتسامه لم تفارق وجهه الشاحب. وكانت رؤية الذراع وحدها تشيب. فموضع أثر كل سن في الدائرة جرح. وكان اللحم المحيط بالدائرة قد ابيضد لونه. قال نين مظهرًا لما ذراعه: (ألا ترين؟) وصرخت كانديلورا، وهي ملقاة على المقعد تتمشدق: (هكذا أريد أن أعض قلبك!) وأجاب نين: (هذا ما اعرفه. وهذه الرغبة تقنّعك بأنه أولى لك ألا تتركيني.

اذهي بالقبعة، وأتني بصبغة اليود والشاش المعقم والرباط. جميعها في الخانة العليا من مكتبي يا لوريتا. هي الثانية من اليمين. إنني اعرف أنك حيوان صغير مفترس يحب العض، ولهذا أحرص دائماً على الضمادات اللازمة)

وأمسكت كانديلورا بذراعه ونظرت في عينيه وشفعتها بنظرة قصيرة إلى ذراعه، واعجب نين بها ساعة هذه النظرة

لكانديلورا سحر في اللون والحركة، وهي تشحذه للعمل. فعينا الفنان تكتشفان في هذه المرأة اشياء ابدأ جديدة ومتعددة. ففي هذه الظهيرة تبدو وهي في حديقة المنزل، وتحت شمس شهرا غسطنس المحرقة، التي تنشر ظلالاً حادة في كل مكان، ولها أثر مخيف. وكانت في نفس الصباح، حينما آبت من حمام البحر حيث قضت بضعة أسابيع محترقة الجلد سمراء اللون من فعل الشمس وملح البحر، لون شعرها منطفئ، وضياء العينين أشبه ما تكون بعنز تشتهي النوم. وكانت بذراعيها العاريتين المفتولتين وبكفلهما النامي تظهر في كل حركة بسيطة أن رداءها الأزرق الحريري الذي يناقض لون جسدها ويلتصق به يكاد يتقطع. وكان هذا الرداء مدعاة للسخرية. لقد كانت كانديلورا تقضي نصف يومها عارية تمرح على شاطئ البحر المنعزل، وترقد بجسمها الصامد على الرمال المتقدمة من حرارة الشمس الملتهبة، بينما كانت تشعر بنسيم البحر البارد يهب على قدميها. فكيف لهذا الرداء الأزرق أن يخفي عراها؟ لقد ارتدته مجاملة للعرف، ولكنه في الواقع اظهرها في حالة غير محتشمة أكثر مما لو كانت عارية.

ومع كل ما كانت عليه من غضب لحظت في عينيه إعجابه بها. وسرت إلى شفتيها بفعل الغريزة ابتسامة الرضا. واستاءت لساعتها من فعلتها هذه. وانقلبت ابتسامتها ضحكة استهزاء. وصارت ضحكة الاستهزاء فجأة نحيباً وشهيقاً وهربت إلى المنزل وأخرج نين بابا لسانه لها دون وعي وهو يرقب مسيرها. ثم نظر إلى ذراعه المجروحة التي تشع ألماً محرقاً من فعل حرارة الشمس. ثم شعر فجأة أن عينيه أغرورقتا بالدموع. ومن يعرف السبب؟ وتحت تلك الشمس المحرقة في وسط الحديقة حيث الظلال الحادة مترامية شعريين بابا بأنه كاد ينزعج من وجود اشياء عدة لا حراك بها من حوله: الأشجار، وجذوع أشجار البلوط، والاحواض المركزة على جوانبها صخور صناعية، وسطح الماء الاخضر، والمقاعد ماذا

تنتظر كل هذه الاشياء؟

إنه يمكنه أن يتحرك وأن يسير. ولكن يا للغاربة! كأن كل هذه الاشياء التي من حوله ولا حراك بها تنظر إليه؟ ثم هي لا تنظر إليه مجرد النظر بل ترسل إليه سخرتها في سحر يشع من جمودها العجيب، وصورت له أن قدرته على المسير ليس من ورائها طائل، إلا أن تظهره بمظهر الغباوة الداعية للسخرية.

وهذه الحقيقة تمثل ثراء البارون شيكو. وهنا سكن نين بابا منذ ستة شهور، إلا أنه لم يشعر بالاشمئزاز من نفيه ومن كانديلورا إلا في صبيحة أمس، وحين آبت الساعة من البحر تجسم وزره ووزر عراها أمام عينيه. غير أنه اضطر إلى الضحك ساعة أن قالت له تهرب الآن من هذا العار. وقد أفصحت له أنها تبغي ذلك.

حقاً إن صور نين بابا ستلقي رواجاً بعد الآن. وان قيمة فنه الجديد الخاص به قد بلغت أخيراً أعلى مرتبة. وليس ذلك لأن الناس حقاً فهموه، ولكن أمزجة الأغنياء من زوار معرضه وعقلياتهم تنقاد لحكم النقد الفني فيقفون إزاء لوحاته معجبين النقد؟ وأيضاً كلمة النقد لا وجود لها في غير سراويل النقدة.

والناقد الذي قصده كانديلورا وجلة يوماً ما، لكي ترجمة في وجهه بأنه غير عادل حين يؤدي بفنان مثل نين بابا إلى التهلكة جوعاً - ذلك الناقد الكلمة دون غيره، كتب مقالاً عظيماً يلفت به انظار المترددين إلى فن نين بابا الجديد والطابع الشخصي فيه.

ولكنه طلب أجراً مقابل اعترافه بالفنان. على ألا يُدفع هذا الاجر نقداً، بل شكراً حيويّاً تقدمه كانديلورا له. ولم يكن من كانديلورا إلا أن قدمت دون تريث هذا الشر جزيلاً. غير قاصرة على ذل الناقد، بل عمت هذا الشكر للذين أعجبوا بفن زوجها، ذلك الفن الجديد. فقد ملكتها نشوة فرح لانتصار زوجها. وشكرت الجميع وبخاصة البارون شيكو، الذي جرى في ذلك إلى حد أن ترك للزوجين منزله، حتى يكون له شرف إيواء فنان معذب....

مسكينة كانديلورا! لقد خافت الفقر وقالت ان الفقر ليس هو الحاجة ولا الذل. وانه ليس لما حق فيما يكسبه زوجها. ودفعته

عدم اهليتها هذه للانتقام. وعلى اي صورة؟ منزل. سيارة. قارب بخاري، حلى. جواهر ثمينة، تزهات خلوية. أدوات زينة. مآدب... ولم تشعره بغضب منه، إذ بقي دون أن يتغير في شيء... فلا هو حزين ولا هو فرح، ولا زال مهملاً في هندامه كما كان..... وليست له بهجة في غير الوانه. لا يعرف مطلباً سوى التفرغ لفنه، حتى يصل إلى القرار، القرار المكين، كي لا يرى شيئاً من صور الحياة الوضيعة التي تحيط به من المحتمل، كلا، بل بكل تأكيد ان تلك الحياة الوضيعة - حلى لوريتا والترف والدعوات والمآدب - تدل على شهرته. شهرته وعاره - ولم لا؟ وماذا يهمه من أمر ذلك؟ إنه يقدم روحه وكل ما فيه للمتعة بورقة يدخل عليها الحياة برسمه، بينما يصير هو لحماً ودماً وشرابين لتلك الورقة. أول للمتعة بحجر صلب لا حس فيه ليجعله فوق لوحته حجراً حياً حساساً، هذا ما يعنيه عاره؟ حياته؟ حياة الآخرين؟ سباب الأجانب الذي لا فائدة من الانصات اليه؟ إنه لا يحيا إلا لفنه، وهو العمل الذي يتمخض عنه النور والألم ويتمثل في روحه.

وقال هذا الصباح للوريتا وكأنه في عام آخر إنها تعجبه - دون أن يعير الأمر اهتماماً خاصاً - حقاً إنها أعجبتة، لأنها ارتضت أن تكون شريكة مطيعة في الحياة، غير عابثة بالفقر، شركة قنوعاً راضية، له أن يطمئن الى صدرها، وطبيعي أن تهاجمه لوريتا كنمرة. ولكن ماذا نفعل بعد ذلك؟ ألا تعود بصبغة اليود والشاش المعقم والضماد؟ لقد سعدت المسكينة باكية.

الآن يجب أن يحب لوريتا. ولربما كان ذلك رد فعل لعدم مبالاته. أليس ذلك جنوناً؟ ولو أنه كان يحبها حقاً لحق عليه قتلها. عدم المبالاة هذا ضروري، هو المقدمة التي لا مفر منها، وليتحمل العار الذي تمثله الى جانبه. أمهرب من هذا العار؟ كيف يمكن ذلك. وكل منهما قد رأى هذا العار ليس بعيداً عنه ولا محيطاً به بل رآه في نفسه أيضاً. والسبيل الوحيد هو ألا يهتم كلاهما بذلك. فهو يتابع تصويره وهي توالي تمتعها بشيكو مؤقتاً ثم بغيره أو به مع غيره في وقت واحد، فرحة غير حاملة همماً. إن الحياة... لا

شيء... وهي تسير على هذه الوتيرة أو تلك، دون أن تترك أثراً. ويجب على الإنسان أن يضحك من الأشياء التي ولدت خبيثة، والتي ليس لها من الكيان ما يغري، أولها كيان، ولكنه قبيح يجعلها تتألم إلى أن تصبح رماداً مع الزمن. وكل شيء يحمل طيه آلام تكوينه، آلام مصيره الذي لا قدرة له على تغييره. وهذا هو الجديد في فنه، إذ يجعل أشخاصه يشعرون بذلك الألم... وهو يعرف جيداً أن كل أحده عليه أن يعرف كيف يحمل حداثته معه. وينطبق ذلك على الوقائع كما ينطبق على الأشخاص. فإذا ما كانت الواقعة واقعة فستبقى كذلك دائماً أبداً، ولن تغير. فكانديلورا مثلاً لو أنها بذلت أقصى جهدها لتصير خلواً من العار ما كانت أصلاً عندما كانت فقيرة لما استطاعت. ولعل كانديلورا لم تك قط خلواً من العار حتى في أيام طفولتها. وإلا لما أمكنها فعل ما فعلت، ثم هي تفرح لعملها هذا.

وتحت حرارة الشمس انقبض الدم في موضع العضبة من ذراعه، وتجعد سطحه وازداد نبضه وانفتحت يده وتوترت شرايينه واستفاق نين بابا من تأملاته وخطا نحو المنزل ونادى مرتين عند مدخل السلم وفي الممشى:
(كانديلورا! كانديلورا!)

ورن صدى صوته في الغرفة الخالية ولم يجبه أحد. دخل في الغرفة المجاورة لمحل عمله ومكتبه، ولكنه تراجع من هول ما رأى. كانت كانديلورا منبطحة على أرض الغرفة البيضاء المفعمة بالنور. ورداؤها في غير انتظام. وكأنها دارت حول نفسها فأنكشف فخذها. أسرع إليها ورفع رأسها، يا ألهي ماذا فعلت. الفم والذقن والرقبة والصدر يضرب لونها بين السواد والصفرة: لقد شربت صبغة اليود.

ثم ناداها قائلاً: (إنه لا شيء! لا شيء ما هذه الفعلة الحمقاء يا حبيبتي كانديلورا. يا طفلي... إنه حقاً لا شيء... إنه يؤدي المعدة طبعاً قفي)

وحاول أن يوقفها على قدميها؛ ولكنه فشل، إذ أن المسكينة قد

تصلب جسمها من شدة الألم. ومع ذلك لم يقل لها مسكينة، بل قال: (طفلي...! طفلي...!) ذلك لأنه ظن ان تجرعها اليود أمر تافه مزر. (طفلي!) ردها ثانية، وقال لها (يا صغيرتي الحمقاء). وحاول أن يسترفخها بالرداء الأزرق فقد أصاب منه نظراً، وأدار عينه الى الناحية الأخرى حتى لا يرى فمها الأسود.

هو وحده في ذلك المنزل. لقد وصلت لوريتا اليوم من حمام البحر. وكانت قبل ذهابها قد طردت الخادمة، فلا أحد يساعده على رفعها من الأرض، ولا أحد يأتي بعربة تحملها الى أقرب مستشفى حتى يؤدوا لها الاسعافات السريعة. ولحسن الحظ سمع بوق سيارة البارون شيكو وهي قادمة في الطريق، وسرعان ما ظهر البارون بهندامه الأنيق ووجهه الأصفر الذي ينم عن شيخ ضعيف العقلية مديد القامة متصاب.

وثبت البارون شيكو (المونوكل) على إحدى عينيه وقال: (ماذا جرى؟)

وصرخ نين في وجهه قائلاً: يا إلهي، ساعدني على إنهاضها) ولم يكادا يحملانها حتى رأيا أن يدها التي كانت منطوية تحت فخذها قابضة على المسدس، كما رأيا تغرة من الدم. وتهد نين: (أه... أه...). وهو ينقلها هو وشيكو إلى غرفة النوم إن لوريتا لم يتصلب جثمانها من شدة الألم، ولكن من الموت. ولما وضعت الجثة على السرير صرخ نين بابا وجه شيكو قائلاً: (من كان معكما في حمام البحر؟ قل لي من كان هذا الصيف معكما في الحمام؟)

وفقد شيكو صوابه وتمتم ببعض الأسماء وزأر (نين) كالوحش وهجم عليه وأمسكه من قميصه وهزه هزات عنيفة وقال له: ([إلهي! كيف يكون كل غني متمول أبله قصير النظر؟)

وتساءل شيكو وقد خاف على نفسه، وكان من شدة الخوف يتراجع باستمرار: (انحن حقاً بلهاء؟)

واشتد تأنيب نين بابا إياه، وقال له: (أنتم، نعم أنتم بلهاء

لدرجة أنكم تكونون الأمل في المساكين بأنهم سيكونون محبوبين
مني! أتفهم ذلك؟ مني! مني! مني - محبوبين!)
ثم وقع على جثمان لوريتا وانفجيريكي بكاءً مرّاً.

صديقان حميمان

لويجي بيراند للو

كان جيحي ميار ينتظر مركبة الترام لتقله كالمعتاد إلى طريق باسترينو حيث مقر عمله وكان متذيراً بمعطفه ذلك الصباح، وقد وضع منديله على أنفه، ويديه في قفاز إنجليزي صفيق فإن المرء إذا ما جاوز الأربعين، فإن ربح الشمال لا تعد مزاحاً.

إن كل امرئ يعرف أن مركبة الترام لن تقبل بأية حال إذا كان في انتظارها. فإما أن تتعطل في منتصف الطريق لانقطاع التيار الكهربائي، أو تختار مركبة تمر عليها، أو شخصاً سيئ الحظ تدهمه تحت عجلاتها. وكانت ربح الشمال الباردة تهب بشدة في ذلك الصباح. وجعل جيحي ميار يرفع رجلاً وينزل أخرى، وهو يراقب النهروقد بدا كأن المسكين يشعر بالبرد القارص أيضاً.

وأخيراً أقبلت مركبة الترام تدندن، وأخذ جيحي يستعد للقفز فيها وهي سائرة دون أن تقف، عندما سمع صوتاً آتياً من بونت - كافور ينادي (جيحي، أيها الصديق العزيز، جيحي) فالتفت فرأى سيداً يهرول قاصداً نحوه، يلوح بذراعين كأنهما عموداً التلغراف. وفي تلك الآونة ابتعدت مركبة الترام. وكان عزاء جيحي على ابتعادها أن وجد نفسه بين ذراعي السيد الغريب الذي لا بد أن يكون صديقاً حميماً له، إذا حكم على ذلك من عنف القبلتين اللتين طبعهما الرجل على المنديل الحريري الذي يغطي وجهه

وقال الرجل - أتعلم أنني عرفتكم في الحال، أيها العزيز؟! ألا تخجل من نفسك؟ أعطنا قبلة يا عزيزي لبلوغك هذه السن. إنك تبدو وكأنك كنت واقفاً في انتظاري. وعندما شاهدتك تمد ذراعك لتتعلق بمركبة الترام اللعينة قلت لنفسني (هذه خيانة محض خيانة). فقال ميار وقد علت شفتيه ابتسامة مغتصبة - نعم، كنت

ذاهباً إلى المكتب.

- أرجوك، لا تحدثني عن مثل هذه الأشياء المنفرة.

- لماذا؟ - إني أعني ذلك. في الواقع أُلح.

- أنت شخص غريب الأطوار أتعرف؟

- نعم أعرف. ولكن خبرني، إنك لم تكن متوقفاً رؤيتي، أليس

كذلك؟ إنه يبدو في وجهك.

- حسن، كلا... في الواقع.

- لقد وصلت مساء أمس. وأخوك يرسل إليك تحياته. وهو - على

فكرة، سأجعلك تضحك - لقد أراد أن يبعث إليك بكتاب يقدمني

فيه إليك!... فقلت (ماذا! كتاب تبعث به إلى جيجي الصغير؛ ألا

تعلم أنني أعرفه قبل أن تعرفه أنت؟ نحن صديقان منذ الطفولة،

ورفيقان في الدراسة الجامعية ألا تذكر بادوا القديمة الشهيرة؟

وذلك الناقوس الضخم الذي لم تكن تسمعه مطلقاً؟ فقد كنت

تنام مثل - مثل - ماذا أقول - مثل الرغبة! أظن كان يجب أن أقول،

كالخزير. حسن... وعندما سمعته - مرة واحدة - حسبته إنذار

حريق... ما أحلى تلك الأيام! إن شقيقك في صحة جيدة، وشكراً

لله، فنحن مشتركان في عمل صغير. وأنا هنا من أجله، ولكن، ماذا

بك؟ إنك تبدو كالجنزاة أمتزوج أنت؟

فأجب جيجي ميار في دهشة وشدة - كلا يا عزيزي!

- على أهبة الزواج؟ - أمجنون أنت؟ بعد سن الأربعين؟ يا إلهي؟

كلا. لم أفكر في ذلك مطلقاً.

- أربعون! إنك تبدو في الخمسين أيها الصغير جيجي.

ولكن، لم لا؟ لقد كدت أنسى أن وجه غرابتك هو في أنك لا

تسمع ما يحدث - من الأجراس والسنين. خمسون يا صديقي

العزيز، خمسون سنة، وأكد لك ذلك. لقد ولدت... دعني أفكر... .

في أبريل عام 1851، أليس كذلك؟ 12 من أبريل.

وصاح ميار قائلاً في لهجة من التأكيد - لا تؤاخذني، في مايو.

ولا تؤاخذني أيضاً عام 1852، أتعرف أحسن مني؟ 12 مايو سنة

1852، وعلى ذلك فسنوي الآن 49 سنة وبضعة أشهر.

- وبلا زوجة! هذا عظيم! أنا متزوج، ألا تعرف؟ آه، بلى، إنها مأساة. سأجعل جانبك ينفجران من الضحك، وفي أثناء ذلك، سأعتبر نفسي بالطبع، مدعواً للغداء عندك. أين تأكل هذه الأيام؟ ألا زلت تقصد مطعم باربا القديم؟

وتعجب جيحي في دهشة بالغة وقال - يا إلهي، أتعرف أيضاً أنني أذهب إلى باربا؟ أظنك كنت من رواده.

- أنا، عند باربا؟! كيف أكون هناك وأنا في بادوا؟ لقد علمت وسمعت عن ذهابك أنت والآخرين تقصدون - أيقظ لي أن أقول الحانة، أو الهيك، أو مكان الأكل؟

فأجاب ميار - سمعها الحانة، أو ما شئت، ولكن إذا كنت ستتناول طعام الغداء معي فلا بد أن أخبر الخادم بذلك.

- صغيرة، أليس كذلك؟

- أوه، كلا، عجوز يا صديقي، عجوز. فضلاً عن أنني انقطعت عن الذهاب إلى باربا. ثم لم أتردد عليه منذ ثلاثة أعوام. فأنت في سن معينة... - بعد الأربعين.

- بعد الأربعين، يجب أن تتحلى بالشجاعة، وتدير ظهرك للطريق الذي قد يؤدي بك إلى الهاوية. فإن أردت التردى - حسن، فليكن ذلك، على أن تتزلق في بطن، في منتهى البطء وفي خفة، محاذراً ألا تتدحرج، أو تتعثرتسقط. حسن، ها قد وصلنا. سأطلعك على ما قمت به من عمل طيب بسيط لداري الصغيرة

وأخذ صديق جيحي ميار يردد قائلاً وهو يصعد الدرج خلفه - في بطن في منتهى البطء، وفي خفة. . علم طيب بسيط. . دارك الصغيرة. مخلوق ضخمة التكوين مثلك يتأنق! مسكين أنت يا جيحي! ما الذي فعلوه بك؟ أحرقوا ذيلك؟ أتود أن تترقق عيناى بالدمع؟

فقال ميار وهو ينتظر حتى تفتح الخادم الباب - حسن، يجب أن نكون في وفاق مع وجودنا اللعين، عند هذه المرحلة من العمر. دلت هذا الوجود، تملقه حتى بالتوافه، وإلا جعلك تافهاً. إني لا أود بأية حال من الأحوال أن أجد نفسي مدفوناً في حفرة عمقها أربعة

أقدام. لا، لست أنا.

فقال الآخر يحاول أن يجادله في هذه النقطة - إذا فأنت تعتقد في الرجل أنه حيوان من ذوي الساقين؟ لا تقل إنك تعتقد ذلك يا جيبي الصغير؟ أنا أعرف أية مجهودات أبذلها لأظل قائماً على قدمي. صدقني يا صديقي، لو تركنا الطبيعة تسير في طريقها لأصبحنا من ذوات الأربع. إن هذه المدينة اللعينة تهدمنا لو كنت من ذوات الأربع لأصبحت حيواناً متوحشاً جميلاً، ولرفصتك رفصات عديدة بسبب ما حدثتني عنه، ولأصبحت بلا زوجة، وبلا ديون، وبلا هموم. أتريدني أبكي؟

ودهش جيبي من حديث صديقه، ذلك الذي هبط إليه من السحاب وجعل يتأمله وينقب في أركان ذهنه عن اسم ذلك الشيطان، وكيف ومتى عرفه في بادوا، سواء في طفولته أو في دراسته الجامعية. واستعرض في مخيلته أصدقاءه الحميمين كل من كان يعهدهم في تلك الأيام، دون أن يطابق أحدهم ملامح هذا الرجل. على أية حال، أنه لا يجرؤ على سؤاله، فقد كان يخشى أن يجرح شعوره بعد أن بدت منه كل هذه المودة. فعزم على أن يعرف الحقيقة عن طريق اللف والمداورة.

ومكثت الخادم مدة طويلة دون أن تستجيب إلى قرع الباب فقد كانت لا تتوقع أوبة سيدها سريعاً. وقرع الباب مرة أخرى وأخيراً وقع أقدامها.

وقال لها ميار: ها أنذا قد عدت ثانية أيتها الفتاة العجوز ومعني رفيق فاعتني به، وانتبهي، فلا يقبل مزاحاً مع صديقي هنا، صديق ذي الاسم الغريب...

فقال الرجل وهو يضحك مما جعل المرأة لا تدري هل تشاركه ضحكة أو تعبس في وجهه: (إنسان متسلسل من تيس بقرنين ولحية!). ولا يميل أحد إلى التعرف بذلك الاسم الجميل، اسمي أيتها الفتاة! لقد جعل وجوه مديري البنوك تلتوي، والدائنون يترنحون. ما عدا زوجتي. كانت مسرورة به. إنه الاسم الوحيد الذي وهبته لها. ادخل يا جيبي، ودعني أرى رياشك ومتاعك المسكين..

وقاده مياروقد خاب أمله من جراء فشله في معرفة اسمه، وجعل يطلعه على شقيقته الصغيرة وغرفها الخمس، وقد امتلأت بالرياش في عناية وترتيب. وزاد عذابه في غرفة الاستقبال عندما سمع صديقه يتحدث في مودة كبيرة عن أشياءه العائلية، ويتطلع إلى الصور القائمة فوق الموقد ويقول:

- وددت يا جيبي الصغير لو كان لي زوج أخت مثلك. لو عرفت أي وغد تزوجت أختي؟

- أيعامل شقيقتك معاملة سيئة؟

- كلا، بل يسيء معاملتي أنا. لقد كان من الهين عليه أن يساعدني في عسري. ولكن لا، ليس هو الذي يفعل ذلك.

- أرجو المعذرة، إني لا أذكر اسم زوج شقيقتك.

- لا داعي للاعتذار. إنك لا تذكره؛ لأنك لا تعرفه. إنه لم يقدم إلى بادو إلا منذ سنتين. أتدري ما الذي فعله بي؟ إن شقيقك كان رؤوفاً بي ووعد أن يساعدني، إذا قبل هذا التعس أن يبدل سنداتي - ولكن صدقي، لقد رفض أن يفعل ذلك. وشقيقك، مع أنه غريب، قبل أن يأخذ مشكلتي بين يديه وهو ساخط ناغم عليه. فلأخبرك عن سبب رفض زوج شقيقتي لقد كانت شقيقته سيئة الحظ فوقع في شرك حيي. يا للفتاة المسكينة! لقد سممت نفسها...

فقال ميار: - توفيت؟

- كلا، لقد لفظ جوفها ما ابتلعتته؛ ولذلك شفيت. ولكنك تستطيع أن تدرك أنه أصبح من المستحيل على أن أطأ عتبة دار شقيقها بعد هذه المأساة. يا إلهي ألا نأكل؟ أصبحت لا أرى من الجوع. أكاد أموت جوعاً كالذئب!

وعندما كان يتناولان الطعام على المائدة جعل جيبي ميار يدفعه عن طريق الثقة المتبادلة بين الأصدقاء، على أن يحدثه عن أخباره في بادوا، لعله بذلك يزلق لسانه فيذكر اسمه على الأقل. وكان ضيفه إذ ذاك يزداد شيئاً فشيئاً. فقال له حدثني عن بعض أخبارك - كيف حال فالفيرد مدير بنك إيطاليا، وزوجه الحسناء

وشقيقتها الحولاء، ألا يزالون في بادوا؟

وإذا بصديقه ينفجر ضاحكاً. فقال ماير في دهشة - ما الأمر؟ أليست شقيقتها حولاء؟ فرجاه الآخر أن يكف عن أسئلته وقد ارتجف بدنه وتملكه نوع من التشنج من كثرة الضحك الذي كان يحاول كتمانته دون جدوى، وقال له - أصمت لحظة، بحق السماء، أصمت. حولاء؟ لم أكن أعتقد أنها كذلك. وذلك الأنف المتسع الذي ترى منه مخها! نعم إنها نفس المرأة.

- أية امرأة؟ - زوجتي!

وشده جيحي ماير دهشة. ولم يبق له من قوته إلا ما يستطيع بها أن يتمتم بعض كلمات الاعتذار. ولكن ظل الرجل سادراً في ضحكه أكثر من ذي قبل، إلى أن هدأ أخيراً، ثم عبس، ثم أخذ نفساً عميقاً، وأخيراً قال: - يا صديقي العزيز، هناك في الحياة بطولة لا تستطيع حتى مخلية الشاعر أن تتصورها.

فتهد ميarcائلاً: - نعم، حقاً، أنت على صواب... إني أعرف ماذا تعني.

فعارضه الآخر قائلاً: - إنك لا تعرف شيئاً مطلقاً. أعتقد أنني أنوه عن نفسي؟ أنا البطل. أنا لست إلا الضحية! إن الشجاعة صفة نادرة ما تتحلّى بها شقيقة زوجتي، زوجة لوسيو فالفيرد أصغ لي قليلاً. يا إلهي ما أغباك أيها الرجل!

- كلا، أنا أنا! في خداع نفسي بأن زوجة لتوتشيوفالفيرد تعشقني، لدرجة أنها تزوجت زوجها. ولكن ماذا تظنه حدث؟ مثال من الروح التي لا تبالي في سبيل التضحية، كما ستسمع.

دعني ذات مرة إلى دارها، وكان زوجها متغيّباً. وعندما حدثت اللحظة المؤلمة التي فوجئنا فيها سوياً، أخبراني في حجرة شقيقتها السيدة الحولاء، فاستقبلتني في حياء وخجل، وبدت كأنها تضحي بنفسها في سبيل شرف أختها. ولم يكن عندي متسع من الوقت لأصبح. ولكن يا سيدتي العزيزة، انتظري لحظة. كيف يصدق لتوتشيو ذلك. فقد اندفع لتوتشيو غاضباً مزمجرأً. وتخيل أنت الباقي.

فصاح ميار متعجباً - ماذا؟ أنت، بكل ما فيك من ذكاء؟
فقال الآخر - وديوني؟ فقد يرفض مدي بما يلزمي من المال.
دعنا من ذلك الحديث أرجوك. على أية حال وازنت بين حقيقة
كوني لا أملك فلساً، وبين عدم رغبتني في الزواج..

فقاطعه ميار قائلاً: - ماذا؟ أتزوجتها؟
- أوه، كلا، إنها هي التي تزوجتني. إنها هي التي تزوجت فقط.
لقد حدثتها في ذلك وكلمتها بكل صراحة. قلت أيتها السيدة، إذا
أردت اسمي. حسن، إذاً، خذيه. إني أكاد لا أعرف ما الذي أفعل
به، أقسم لك. أكاف هذا؟
وجازف ميار قائلاً: - إذا فهذا ما حدث؟ لقد كان اسمها فالفيرد،
ثم أصبح الآن...

فضحك الآخر وهو يهيب قائماً - تماماً.
وهتف جيغي ميار، وقد أصبح لا يحتمل أكثر من ذلك وتمالك
شجاعته بين يديه وقال: كلا، اصغ، لقد تمتعت معك بصباح
طيب. وعاملتك كما لو كنت أخي. والآن يجب أن تقدم لي معروفاً.
- لعلك تود أن أقرضك زوجتي؟
- كلا، شكراً. أود أن تخبرني عن اسمك.

فسأله في دهشة وهو يطرق بأصبعه على صدره، وكأنه يشك في
وجوده - أنا؟ أسي؟ ماذا تعني؟ ألا تعرف؟ ألا تستطيع أن تتذكر؟
فأجاب ميار معترفاً في حياء - كلا، أرجو المَعذرة، سمني أكبر رجل
عديم الذاكرة في العالم. ولكني أكاد أقسم أنني لم أرك مطلقاً.
- أوه، عظيم جداً، عظيم جداً، يا عزيزي جيغي الصغير، ضع
يدك في يدي. إني أشكرك من أعماق قلبي على حسن ضيافتك -
ولكني سأذهب دون أن أخبرك - وهذا كل ما هنالك!

فانفجر جيغي ميار صائحاً وقد هب واقفاً على قدميه -
ستخبرني، عليك اللعنة! لقد أرهقت عقلي طول الصباح، ولن
أدعك ترحل دون أن تخبرني.

فأجابه الآخر في هدوء وثبات - اقتلني، قطعني إرباً، ولكنني لن
أخبرك!

فأخذ ميارمرة أخرى يعدل من لهجته وقال - كن رجلاً طيباً. إني لم أجرب مثل هذه التجربة من قبل - فقدان الذاكرة - أنت تعرف. إني أقسم لك أنه شعور مؤلم. فخبّرني عن اسمك بحق السماء. . . ابحث عنه بنفسك.

- استمع إليّ. إن ضعف ذاكرتي لم يمنعني عن السماح لك بالجلوس على مائدتي. وفي الواقع، حتى إذا لم أكن أعرفك على الإطلاق، فقد أصبحت الآن عزيزاً لديّ. صدقني. إني أشعر بشعور الأخوة نحوك، وأعجب بك، وأود أن تظل معي دائماً. فخبّرني إذا عن اسمك.

فقال الآخر في حزم - لا فائدة ترجى من ذلك. أنت تعرف أنك ستندسانني إذا ما رجلت. كن عاقلاً. أتود أن تحرمني من تلك اللذة التي لم أكن أتوقعها، لذة تركي إياك دون أن تعرف من يكون ضيفك؟ كلا. . . اذهب. . . إنك تطلب الشيء الكثير. إني أرى جيداً أنك لا تملك أية ذاكرة نحوي. فإذا لم تكن تود أن تجرح شعوري بذلك النسيان، فدعني أذهب كما سأفعل الآن.

فصاح جيبي بغضب عاصف - اذهب إذاً، سريعاً، هذا كل ما أطلبه. إني لا أحتمل رؤيتك بعد الآن.

- حسن، إني ذاهب. ولكن اسمح لي أولاً بقبلة صغيرة يا جيبي الصغير.

فأجاب ميارصائحاً - إني أرفض، إلا إذا أخبرتني. . . فقاطعه الآخر قائلاً - كلا، كلا، هذا كل ما هنالك. والآن. . . إلى الملتقى. وذهب ضاحكاً. والتفت إليه وهو يتأهب في نزول الدرج؛ وأرسل إليه قبلة في الهواء. . .

العبقري الملعون

جيوفاني بابيني

ذهبت إلى براغ مرتين ولكني لم أستطع لقاءه. ففي المرة الأولى لم أجرؤ على التطلع إلى بيته. وفي الثانية لم أهتد إلى منزله الجديد، فقضيت ليلة في تلك المدينة الغريبة أسائل الناس عنه وأنا مسوق إليه سوقي إلى المصير المحتوم.

لقد كنت في تلك الليلة متشبعاً بكلامه وأفكاره حتى أخذت أحلم أحلامه وأغني أغانيه وأتابع تيارات تفكيره وأتمثل نفسي أحد أبطال قصصه. لم أخضع لرجل من قبل كما خضعت لذلك الرجل الغريب الذي يزداد تأثيره فيَّ يوماً بعد يوم حتى لم أعد أفكر في أمل الخلاص منه. كنت أعتقد أنه أعظم رجل أنجبته أوروبا. ففي فنه روعة (بو) وتهويله، وقوة نيتشه ووحدته، وموسيقى شيلي وعذوبته، وآلام (دستوفسكي) ومرارته فيه حمرة الجحيم وزرقاء السماء. فيه طلاقة الطفل وعبوس الشيطان، ولكن شيئاً آخر كان خافياً عليّ هو عبقريته الفذة التي لم يكن يدركها أو يشرف عليها إلا القليلون. ولم تكن شهرته الذائعة التي نالها في سنين قلائل، إلا مجداً خالداً يشدو بذكره. لقد رماه الناس بالكبرياء والنفور، ولكنهم لم يدروا شيئاً عن مؤلفاته ولم يحيطوا بأركان عبقريته. لقد أحببت قصصه إذ كانت كلها سيرة لشخصه من نسج غريب. تزار أرواح أبطاله وتدوي بين أحزان الحياة ومخاوفها.

لم أستطع أن اكبت ذلك الإعجاب طويلاً، بل أحسست بدافع قوي لأن أراه وأتطلع إلى وجهه واسمع كلمات تخرج من فمه. أردت أن أقرأ في سطور وجهه تلك الآلام العاصفة التي صيها في أبطال قصصه فوطنت العزم على لقائه. وقد ساعدني على ذلك رجل فرنسي قادني إلى بيته، فدلّفت إلى سلمه وقد ازدادت دقات قلبي

شدة كلما دنوت من الطابق الذي كان يقطنه. وقفت أمام الباب وحاولت الكلام ولكن لساني كان قد لصق بسقف حلقي فوقفت برهة انظر إلى تلك اللوحة النحاسية المنقوش عليها اسمه في حروف كبيرة سوداء فازددت هلعاً ورعباً. وأخيراً استجمعت قواي ومددت يدي إلى الباب أقرعه، فجاءتني خادمة نصف في لباس أسود، فهمست في أذنها باسم ذلك الكاتب العظيم، فقادتني إلى ممر طويل ينبعث فيه نور ضئيل شاحب حتى وصلت إلى غرفة نظيفة قد أغلقت نوافذها وتدلّت مصابيح الكهرباء في وسطها، فلمحت في أحد جوانبها مكتباً صغيراً عليه دفتر كبير شبيه بدفاتر المحامين وقد كسيت الجدران بالخرائط والصور.

شعرت بخيبة الأمل عندما وقع نظري على تلك الغرفة العادية التي لم تكن تختلف عن سائر الغرف ولاسيما وقد كنت أتوقع صومعة لقديس أو عربناً لأسد لا مكتب أحد المحامين؛ فأخذت أسائل نفسي: أحقا هذا بيته وتلك غرفته، أم أنا في بيت أحد أقربائه؟ ولكني لم أطل التفكير في هذا إذ رأيت أمامي رجلاً ضئيلاً قد أربى على الخمسين يحييني بلغة فرنسية صحيحة، فارتعت لمرآه. أيعقل أن يكون رجل أحلامي وأماني هذا الرجل الضئيل الذي يرمقني بعينين صغيرتين وتنفرج شفاته عن ابتسامه هي أقرب إلى ابتسامات البله والسذج؟ أيعقل أن يكون هذا الرجل الذي يرتدي ثوباً أسود ويضع يديه في جيبه كما يصنع ضابط الاستبداد أو موظف المعاش؟ ذلك الذي جعل قلبي يخفق بروعة آثاره وقوة أسلوبه؟ وهل يمكن أن تكون تلك الأفكار العظيمة التي حيرتني وجعلتني اقطع الليالي ساهراً قد نبعت من ذلك الرأس الأصغر الصغير؟ لم اكن لأصدق هذا، بل كنت كلما أنعمت النظر فيه ازددت دهشة وعجباً، حتى لم أستطع أن أخفي دهشتي فقلت. أنت الكاتب الذي أبحث عنه والشاعر الذي كتب (نفسي) و(الله) (ومشاكل نصف الليل)؟ فأجابني في هدوء وابتسام: نعم، وكأنه لم يشعر أنني أهنته بسؤالي هذا فدعاني إلى الجلوس وسألني حاجتي. لم أكن أعرف مكاني، ولم أكن أستطيع التفكير في شيء أقوله،

فلاحظ علي بعض هذا الارتباك فدنا مني متلطفاً وقال: أراك أحد المعجبين الأجانب الذين يأتون لرؤيتي. إن هذا أمر يسير، فأني أستطيع أن أقوم لك بما تريد. ثم أسرع إلى مكتبه وأخرج ورقة ومجموعة من الصور وعاد ثانية يستأنف حديثه: (هاك بعض تاريخ حياتي مدوناً بالفرنسية، وفهرسا كاملاً لجميع مؤلفاتي. أي صورة تعجبك؛ إنني أظن أن أحسن صوري ما كان جانبياً، ولكن لك الاختيار. في أي صحيفة ستنشر هذا المقال؟ أفي صحيفة يومية أم في مجلة؟ فلما رأى أنني لم أجبه إلا بنظرة حائرة ساهمة عاد إلى مكتبه وأخرج كتاباً صغيراً وقدمه إلي قائلاً: هاك أشهر المقالات التي نشرتها كبرى الصحف عن مؤلفاتي، إنها مدبجة بأقلام كبار الناقدين. ألا تريد صورة تنشرها مع المقال؟ ثم أسرع ذلك الرجل الذي لا يعرف التعب إلى مكتبه وجاءني بأقاصيص من الورق مكتوبة بخط يده، فلم أستطع أن أخفي دهشتي، ولكن صاحبي مضى في حديثه قائلاً: أليس هذا كل ما تحتاج إليه؟ أظنك تريد أن تعرف كيف أكتب، سأخبرك حالا: إنني أعمل أربع ساعات في اليوم ولا أكتب أكثر من خمسين صفحة في جلسة واحدة. إنني لا أستعمل الكتب القديمة ولا المعاجم البالية، لأنني صنفت كل مواد الكتابة تصنيفاً جديداً. ففي هذا الصندوق تجد الصفات، وفي ذلك تجد التشابيه والاستعارات، وفي الثالث تجد المتناقضات، وفي الأخير تجد أوصاف المناظر الطبيعية، وفي ذلك الذي عن يمينه تجد الأوصاف الغريبة لجميع الناس. أما الذي عن يساره فقد جمعت فيه كل عناوين القصص والمسرحيات. أظنك الآن تستطيع أن تفهم أن عملي ليس شاقاً جداً بفضل هذا الترتيب. إنني أكتب بدون تفكير كأني آلة: فإذا أردت أن أكتب شيئاً فما علي إلا أن أضع يدي فأخرج كل ما أحتاج إليه. إنني لست أحد أولئك البلهاء الذين ينتظرون الوحي والإلهام، فإنني أكتب بانتظام وفي أوقات معينة. فماذا ترى في هذا؟ فحاولت أن أتكلم ولكني لم أستطع. فمضى صاحبي يقول: (أخبرني. ألا يمكن أن تؤدي لي عملاً في إيطاليا؟ ألا يمكنك أن تنقل بعض كتبي إلى الإيطالية؟ إنني أعطيك 40 % في

المائة من الأرباح وحق النشر في بلادك. دعنا نكتب العقد.
ومن حسن الحظ أن دق جرس التليفون في الغرفة الثانية
فأسرع إليه الرجل دون استئذان، ولكنه ما لبث أن جاءني يقول:
عفوا إن ناشري كتيبي في ميونيخ يطلبوني. دعنا نستأنف حديثنا.
قل لي بصراحة: ألا تستطيع أن تقوم بهذا! فنهضت مذعورا
وأنا أعجب أن تكون هذه اليد الغليظة قد جرت بتلك الروائع
الخالدة، ثم صوبت نظري إلى الباب ولكنه لم يكد يراني أنهض حتى
صاح: ألا تنتظر الشاي! إن زوجي وطفلي سيعودان حالا وسنتناول
الشاي معاً. ألا تريد أن ترى طفلي؟ إنهما طفلان جميلان، أحدهما
في السابعة والآخر في الحادية عشرة، إن زوجي تجيد العزف على
(البيان) وتتنقن فن التصوير. إن هذه اللوحات الفنية التي تراها
على الجدران من ريشتها، فقيعت في كرسي وأنا أتفرس في وجه
ذلك الرجل الذي لم يفتأ يقوم ثم يقعد ويفتح الأدراج ثم يقفلها
وأخيراً قال لي: هنا تجد الطبعة الأولى من كتيبي، وفي الدرج الآخر
تجد الطبعات الثانية، وتحتها التراجم. إنه محصول كبير، أليس
كذلك؟ إني أعنى بها عنايتي بأطفالي. ثم أخذ يقهقه عاليا فلم
أطق أن أرى فكاهته ينفرجان عن فم واسع كرهه، فصحت: يجب
أن أذهب، ثم اندفعت إلى الباب وتدحرجت على السلم؛ وبدون
أن أشعروا وجدت نفسي خارج المنزل، وما كدت أصل إلى منزلي حتى
ألقيت جميع مؤلفات ذلك الملعون في النار.

شحاذا الأرواح

جوفاني بابيني

دفعأ أأرقرش كان معي آمنأ لفنجان القهوة ثم أخذأ أفكر في الجوع - الجوع للطعام والجوع للشهرة - إذ لم يكن هناك من يهمه أمري أأى صاأب المألة الأى أأأب فيها لم يكن يقبل منى قصة إلا عندما لا يجد أفضل منها، وقد اعتاد أن ينفأنى أمس (ليرات) سواء كانت القصة طويلة أو قصيرة.

في ذلك المساء من شهريناير كان الجو يدوي بالرياح القوية العاصفة وأصوات الأجراس الرأبة العالى، فدلأأ إلى أأأ المقاهى الكبيرة أنفرس في الوجوه النائمة المتعبة، ثم أخذأ أرأشف فنجان القهوة وأنا أفكر في مخاطرة غريبة تصلأ لأن أكون موضوعاً لقصة. فأأأأ أقأأ زناأ فكرى على أهأأى إلى فكرة لقصة أصيب منها بضع ليرات أأفينى يوماً أو يومين.

كنت مضطراً لأن أأأب قصة في ألك الليلة أقأأها لصاأب المألة في الصباأ، ففينأنى مبلأاً من المال يكفي لأألة طيبة، فأأأأ أفكر أأرقب أول أاطريهفو بذاأرتى أملاً به ألك الأوراق البياضاء الأى وضعأها أمامى على المنضدة.

أضيت أربع ساعات وأنا على أذه الحالة من الانتظار والأيرة ولكن رأسى كان فارأاً وأيالى أأبلاً وذهنى مكأوأاً، فبأسأ من أأابة أى شىء في ألك الليلة فأأأب بأأرأأعة من نقوأى على المائدة وانصرأأ.

ولكنى لم أكأ أأأ المقهى أأى أال بأاطرى ذلك القول القديم وهو (إذا استطاع الإنسان العاأى أن يأون أباته الأاصة فإنه يخرج لنا أعظم القصص) ثم أخذأ أفكر في أذا ولكنى لم

أصل إلى شيء جديد. إلا أنه ما كدت أصل إلى منزلي حتى وقفت وقلت لنفسي (لماذا لا تحاول هذا بنفسك. لماذا لا تكتب حياة أي رجل عادي يقابلك في الطريق).

لم يكن لدي ما أقوله عن نفسي فقد أفرغت كل شيء حدث لي في قصصي، وعلى ذلك يجب أن أبحث عن رجل عادي - وإن كنت لا أعرفه - يقص علي قصة حياته.

لاحت هذه الفكرة غريبة وبسيطة حتى أنني عزمت على تنفيذها بأسرع وقت، فتركت منزلي وأخذت أطوف في الشوارع آملاً أن أصادف في تلك الساعة المتأخرة من الليل إنساناً. سرت مسرعاً أنفوس في كل الوجوه محاولاً أن أختار الشخص المناسب ولكني لم أصادف مخلوقاً فانعطفت إلى ميدان صغير ووقفت هناك كأني أحد قطاع الطرق أو أحد لصوص الليل. ثم لمحت شبحاً قادماً فلم أرد أن أفاجئه بهجومي السريع فانتظرت حتى دنا مني فإذا هو رجل عادي قد التف في عباءة طويلة وترك شعره الطويل يتموج في الفضاء فلم أرد أن أسأله وتركته يمضي في طريقه، ثم تبعت آخر وكان حليق الذقن محدودب الظهر يتمتم بأغنية إسبانية قديمة لعلها كانت تذكره بأيام شبابه الماضية، فلم أكد أتفرس في وجهه حتى رأيته يغلب عليه النوم فتركته لشأنه.

إني لا أستطيع أن أتذكر الحال التي كنت فيها في تلك الليلة، كلما فكرت في تلك الحالة فأتصور نفسي إنساناً غريباً من قطاع الطرق يترقب شخصاً لا يعرفه يسأله قصة حياته وهو يتحرق شوقاً لأن ينقض على تلك الفريسة المجهولة، وكأن القدر القاسي قد ظن عليّ بذلك الرجل الذي أنتظر، إذ أن جميع من مروا بي كانت تبدو عليهم علامات الترف والنعيم. ولكني لم أياس من الوصول إلى بغيتي، فبقيت واقفاً تحت المصباح الذي كان يتمايل كلما هبت الريح ولكن الشوارع كانت مقفرة، ولم تكن تلك الرياح العاصفة تغري الناس على السير في تلك الليلة الباردة. ولكن لم يطل انتظاري إذ لاح على بعد شبح قد أيقض الشارع وملاه حركة بعد سكونه ثم أخذ يدنو مني شيئاً فشيئاً، ولم يكد يقترب مني حتى

عرفت أنه الرجل الذي أبحث عنه. لم يكن ذلك الرجل بالجميل ولا بالقبيح. بل كان وسطاً بين الاثنين كما كان وسطاً بين الشباب والكهولة، ذا عيينين هادئتين يلبس معطفاً سميكاً على أحدث طراز. فلم يكذب يخطو عدة خطوات حتى أوقفته بيدي، فارتاع لم رأي ورفع يدع كمن يتأهب للدفاع عن نفسه ولكني أسرع فطمأنته أنني لا أريد به سوءاً فقلت له في صوت رقيق (لست قاتلاً ولا سفاك دماء ولا شحاذاً وإن كنت شحاذاً من نوع آخر، إني لا أطلب مالاً ولكني أطلب شيئاً واحداً لا يكلفك نفقة هو قصة حياتك) فحملق الرجل في وجهي ثم تراجع إلى الوراء، فتوقعت أنه قد ظن أنني معتوه فقلت في صوت هادئ رزين (إني لست مجنوناً كما تظن وإن كنت قريباً من ذلك فأنا كاتب قصص عليّ أن أكتب قصة قبل طلوع النهار لأرد عن نفسي غائلة الجوع، ومن أجل ذلك أسألك أن تخبرني عن كل ما حدث لك. من أنت؟ وماذا تعمل؟ حتى يمكنني أنم أكتب قصتي عنك. إني أصارك القول إني أحتاج إليك وإلى قصة حياتك وإلى اعترافاتك. أرجوك أن لا تخفي عني شيئاً. إني واثق أنك لا تضن بمساعدة مخلوق بائس مثلي فأنت الرجل الذي كنت أنتظره وربما كنت أستطيع أن أكتب بما تقدمه إليّ أروع القصص.

فبدا على الرجل التأثر ونظر إلي في عطف وإشفاق وقد زال عنه الخوف وقال (حسناً. إذا كنت تريد حقاً أن تسمع قصة حياتي فيمكنني أن أخبرك عنها ولا سيما أنها سهلة بسيطة. فقد ولدت منذ 35 سنة من أسرة كريمة وكنت وحيداً والدي فأرسلاني إلى المدرسة وأنا في السادسة. وفي التاسعة عشرة التحقت بالجامعة وحصلت على درجتي في الرابعة والعشرين. لم أظهر طوال دراستي شيئاً من النبوغ الخارق، أول الغباوة الفاضحة. ثم أعانني والدي على أن أشغل وظيفة في السكة الحديدية وخطب لي فتاة جميلة. إني أعمل ثماني ساعات في اليوم وعملي لا يحتاج إلا إلى الصبر وذاكرة متوسطة، ويزداد مرتبي جنهين كل ستة سنوات، وعلى ذلك فإذا عشت حتى الرابعة والستين فسأحصل على معاش قدره كذا. لقد أنجبت طفلين ولداً وبنتاً، فالولد في العاشرة الآن

وسأعده لأن يكون مهندساً. وأما البنت فهي في التاسعة. وسوف تكون مدرسة. إني أحيا الآن حياة هادئة لا يشوبها نكد أو أطماع. أستيقظ في الثامنة من صباح كل يوم وفي التاسعة مساءً أذهب إلى المقهى حيث أتحدث مع بعض زملائي عن الطقس والحرب والحكومة والوظائف. والآن لقد أخبرتك بما تريد، فهل تسمح لي بالعودة بعد أن تأخرت عن موعد ذهابي إلى المنزل عشر دقائق).

ولم يكذب ينتهي من كلامه حتى شعرت بشيء غريب اضطرب له جسدي إذ كيف يحيى ذلك الرجل تلك الحياة الرتيبة العادية الثابتة، فأشفقت عليه ومضيت في طريقي وأنا أقول في نفسي (حسناً، هذا هو أحسن نموذج للرجل العادي والبطل الحقيقي للحياة الحديثة. والعجلة الصغيرة في الماكينة الكبرى، واللبننة الأولى في الحائط العظيم، الرجل الذي لا يضطرب كثيراً للخيلات والتصورات، كنت أظن أن مثل هذا الرجل غير موجود ولكني قد وجدته أخيراً واقفاً بجانبني ثم أردت أن أعرف عنه كل شيء فهرولت وراءه وأنا أقول (أليس هناك شيئاً آخر في حياتك، ألم يعرض لك حادث غريب، ألم يحاول أحد أن يقتلك؟ ألم تخدعك زوجتك أو يهزمك عدو؟) فأجابني: (لا شيء من هذا. لقد كانت حياتي كلها هادئة منتظمة فلم أعرف الأفراح البهجة ولا الأحزان القاتلة. لم يحدث لي ما يستحق الذكر) فقاطعتة قائلاً: أحقاً ما تقول؟ حاول أن تتذكر- إني لا أكاد أصدق هذا النوع من الحياة. فأجابني: (إني أكّد لك أنه لم يحدث لي شيء حتى هذه الليلة، حتى فاجأتني بلقائك الغريب الذي هو أول مخاطرة - فإذا أردت أن تكتب شيئاً فعليك بهذا).

قال هذا ثم مضى مسرعاً بقيت في مكاني أنظر حولي حائراً مذهولاً.

ثم عدت إلى منزلي دون أن أكتب القصة. ومنذ ذلك المساء لم أعد أسخر من أولئك الناس العاديين ثانية.

حياة جديدة دومنيكو ماريا ماني

راها أنطونيو فشغف بها حباً، وكانت نظرتة الأولى إلى وجهها المشرق الجميل الرائع فاصلاً عظيماً في حياته التي جد بها الظماً، ففجأها وابل من كوثر الحب، فرويت، ولكنه وا أسفاه كان روى أحر من قاتل الظماً، وآلم لنفسه من شديد الجواد. وأحبته جينفرا، وكانت تقضي لياليها مثله مؤرقة مسهدة، تفكر في روحه الشاعرة الحلوة التي تطل عليها من عينيه الحبيبتين وقلبه الذي يرسل إليها نبضاته الموسيقية على أجنحة الأثير... ولبت أنطونيو يجد في ميادين الحياة ليبي دعاة مستقبلة على لبنات من مادتها، حتى إذا تقدم إلى والد جينفرا تقدم وفي يديه حفنة من ذهب قارون لا تطمئن ألباب الآباء إلا إليه، ولا تطب إلا به، ولا تقيس العيش إلا بمعياره... وكان يعمل دائماً وفي عينيه صورة جينفرا ما تفارقهما، وفي قلبه المعمود تمثالها المعبود ما يبارحه، حتى إذا تصرمت سنون أربع طوال كالدهر وتقدم إلى والدها دلجي امييرا يخطب إليه ابنته، رده الأب الجبار رداً لا رحيماً ولا كريماً، لأن فتى من أسرة أجولاني يقال له فرانسيكو كان قد تقدم إلى الرجل يخطبها على نفسه، فقبل الرجل يده، من غير أن يستشير ابنته، ومن غير أن يقيم للحب الذي صهر فؤادها وزناً، مع علمه به، وورثائه لها من أجله...

وكانت المادة التي عمل أنطونيو على اكتسابها جهده سبب رد الوالد التاجر إياه، لأن أسرة الفتى فرانسيكو كانت أسرة جاه ويسار ومجد، وإن يكن الفتى نفسه من هذا الشباب القنّع الذي لا خير فيه، وإن يكن قلب جينفرا لم يجزه إلا صموداً، ولم يشعره إلا جفاء وسلواناً.

ولكن ما قيمة أن تأبى الفتاة في هذا العصر العنيف الظالم ما لا ياباه أبواها من أمر لا يعنهما بقدر ما يعنينا، لأنه أمر حياتها ولأنه أمر سعادتها أو شقتها؟ لا! لا قيمة لاعتراض الفتاة... وهي مرغمة على أن تقر صاغرة ما اختار لها أبواها... وإن كرهت... فلا بد إذن من أن ترضى جنيئرا بهذه الزيجة لأنها صفقة من صفقات قارون، و صفقات قارون رابحة مطلقاً، لأنها تمشي بالفتاة على أرض من ذهب، وإن تك في قلبها جحيما من لظى ولهب، وهكذا زفت جنيئرا المسكينة إلى زوجها المفروض عليها... وهكذا انتصر العالم الفاني على العالم الباقي، وصرع شيطان الأرض ملاك السماء، وتسلب التراب على الروح فعفروا وجهها الحر الكريم.

وذهبت الفتاة إلى زوجها جسما بلا روح، ودمية من اللحم والدم والعظم ليس لها قلب، لأن روحها وقلبيها مع رجل آخر غير هذا الرجل... مع أنطونيولا مع فرنسيسكو... مع الحبيب الذي منحها وجوده، وجعلها علة بقائه، مع الشاب الذي ثوى ملء جوانحها يضرمها بإخلاصه، ويؤججها بأماله التي انهارت في الأرض، وثبتت في السماء...

وذهب أنطونيويبيكي من أعماقه، وينشد النظرة الخاطفة من حبيبته في الكنائس والمسارح والمجتمعات، ويقسم جهد أيمانه أن يعيش على ذكراها، وألا يتصل بأنثى من بنات حواء مادامت جنيئرا قد أفلتت من يديه. ولم لا؟ أليس بحسبه أن يعرف أن قلبها له، وأن جسمها لزوجها الذي لم يكن لها يد في اختياره، ولابد من الرضاء به؟ ثم أليس بحسبه أن يكون وفيأ لها مادامت قد أرغمت على شيء لا يستطيع أحد أن يرغمه هو على مثله؟!، وما الفرق بين أن ترغم جنيئرا فتتزوج، ولا يرغمه أحد فيتزوج؟ إنه إن فعل فإنها تفضله؛ وإن لم يفعل عاش كما عاش المحبون المخلصون من قبل، وعاش خالداً في القديسين الخالدين.

في سنة 1400 نكبت أكثر الممن الإيطالية بطاعون عظيم ذهب ضحيته أكثر سكانها، وكانت قرى بأكملها تصبح خلاء من أناسها وحيوانها، وكانت فلورنسا الجميلة، عروس المدائن الإيطالية في

ذلك العصر من أكثر البلدان ضحايا وشهداء

ولم تسلم جينفرا من هذا الوباء، بل تعذبت به طويلاً، وكلت حيل الأطباء في سبيل إنقاذها، فأسلموها للمقادير، وانصرفوا عنها يائسين. . ولم تمض أيام حتى وقعت فريسة لنوبات جنونية كانت تعصف بها عصفاً شديداً، وتعذبها عذاباً مبرحاً، وتذيب من حولها قلوب ذويها أسفاً عليها. . وأغمي عليها مرة إغماءة قاسية فحسب أهلها أنها أسلمت الروح. .

وسواء أحسبوا ذلك أم لم يحسبوه فإنهم كانوا قد ضاقوا بمريضتهم ذرعاً، وملئت قلوبهم منها ذعراً، لأن أنفاسها وباء، وبزاقها داء، وأنيها لهم أئين، وحملها عبء إن كانوا قد استطاعوا حمله أياماً فأنهم عليه مع هذا الجنون غير صبر.

وكان الناس لا يتورعون أن يدفنوا مرضاهم أنصاف أحياء خشية استفحال الوباء، فلما أغمي على جينفرا، وطال عليهم إغماؤها، وقر في قلوبهم أنه الموت، فجهزوها مسرعين، وحمل تابوتها طائفة من القسيسين فهرولوا به إلى مدفن العائلة، وكان قبواً عظيماً تحت الأرض بعيداً من المدينة، فدفنوها فيه في احتفال بسيط؛ ووقف زوجها وأهلها وعارفو فضلها يذرفون عبراتهم على ثراها. . ثم انصرفوا. . وأقبل أنطونيوس المحزون يبكيها بدوره، ويسكب عليها شئونه لا كما يسكبها غيره من الناس، بل كما ينبغي أن يفعل العاشق الصب وسد الناس قلبه تحت الثرى والصفاح.

كذا فليجل الخطب، وليفدح الأمر، وليبك أنطونيوس وندينلي! لقد وقف المسكين على ثرى معبودته، وعند قبوها الهائل، وراح ينثر بقايا روحه على جدتها الطاهر العزيز. . ثم جلس في ذهول وفي شبه إغماء، وانطلق يحلم بماضيه الجميل، ويرسل عينيه وراء سجفه الشفشفافة ليراها جالسا إلى جينفرا يناجيها، ويتحدث إليها حديثاً كقطع الروض، ومنصور الورد، ويقبلها تلك القبل الحاملة الناعمة فوق ثغرها وفوق نحرها وفوق ذراعيها. . ثم يفيق المسكين. . فيراه جالسا يبكي. . فوق قبرها. . وهي تحت

هذا الجندل المركوم والتراب المهيل جثة هامدة ساكنة صامتة، لا يتحرك لسانها، ولا تنفجر شفتاها، ولا يتفتح الورد في خديها، ولا ينبعث النور والألاء من جبينها ووجنتها فيحس كأنما روحه تساقط مع أنفاسه الباردة لتثوي مع جينفرا تحت التراب.

ويقف أنطونيو فجأة ويحج القبر بعينه الباكيتين، ويقسم أنها ليست فيه!... ليكن! قد يكون ما يعني روحها... أو... ذكرياتها. ثم يمضي إلى المدينة، ويذهب إلى منزله مصدوع القلب، ذائب النفس، خفق الأحشاء، ليس أسمع في عينيه من هذه الدنيا الكريمة الغادرة!

لم تكن جينفرا قد ماتت كما وهم القوم، بل كانت مغى عليها إغماء شديداً... ولت أنطونيو ما فارق ثراها، حتى يسمع صوتها الضعيف داخل القبو بعد إذ انصرف بلحظات.

لقد هبت المسكينة من غفوتها في العالم الآخر، فجاهدت كثيراً حتى نهضت من تابوتها، وسرعان ما عرفت مصيرها فلم تذعر ولم تنزعج مع ما كانت تضيق به من برد المقبرة وهوائها المرطوب، وريح أكتوبر القارسة.

ثم أنشأت تعالج التخلص من تلك الأكفان التي لم تخلق للبوس هذه الحياة الدنيا، وكانت تسبح بأسماء الآلهة والقديسين وتتوكل عليهم فيما هي فيه من الضيق، وكانت شعاعة ضئيلة من أشعة القمر تنسرق إلى القبو من شق صغير فيه، فكانت لها في شدتها وحرجهاب كبسمة الأمل الحلو الذي ضاعف جهادها في سبيل الحياة... واستطاعت بعد لأي أن تخلص من بعض أكفانها، وأن تخطو في ضعف وإعياء نحو باب القبو... وتهاكت على نفسها حتى صعدت فوق الدرج... وهناك جلست لتستريح لحظة، وتستجم لما أمامها من العمل... حتى إذا أحست في ذراعها قوة أعملتها في الحجارة التي كانت تسد باب القبو، والتي كانت تماسك بطبقة رقيقة من الملاط، كانت ما تزال لينة رطبة، فسهل على جينفرا إزالة بضعة منها، بحيث أحدثت ثغرة تكفي لخروجها في شيء من الصعوبة، وقليل من العناء.

وشجعها ما كانت فيه من هلع على نفسها داخل القبو، وما نالته من الظفر فاحتملت قرالليل وصرير الريح ووحشة الوادي، وجعلت تخطو بقدمين متخاذلتين في الطريق المقفر إلا من أشعة القمر، المنجرد إلا من عشب هنا وعشب هناك، حتى وصلت إلى المدينة...

لله ما أروع هذا الشبح الساري في ضوء القمر يدب على التراب المندى بقدمين عاريتين، وفي أكفان حريرية كأنفاس البخار تصاعد من النبع!

ولله هذا الوجه الشاحب الذي برز الساعة من ظلال الموت وحدود الفناء، وجعل يتدهدى في طرقات المدينة حتى بلغ ذاي كالزأجولي!

لقد كان فرنسيسكو جالساً يستدفئ بالقرب من النار المتأججة في المدفأ، ووجه عابس وجبينه مقطب، وعليه من بداوات الأسى وعلائم الحزن ما كان ينبئ عما في قلبه من ثورة الوجد على عروسه التي لم يعش في كنفها الوارف أكثر من أشهر ثلاثة ثم قضت... وفاز بها الطاعون دونه!

وكان يهم أن يخلع ثيابه، ثم يمضي لينام، لولا أن سمع صوتاً خافتاً وراء الباب، ونقرأ خفيفاً ضعيفاً على الباب، فذهب ليرى من الطارق ليل!

لله ما كان أروع القمر الساري في ملكوت الله وهو يلقي أشعته على الشبح الواقف لدى الباب! لشد ما دعر فرنسيسكو...

لكنه ركع أمام الشبح، وأخذ يرسم علامة الصليب بسبابة مرتعشة، ونظرات مغضية، ثم نهض فتوسل إلى الروح الكريم أن يذهب... فلما لم تتحرك جينفرا مما دهاها من الدهش... أغلق فرنسيسكو الباب، وأحكم رتاجه... ومضى إلى فراشه وبه رجفة تزلزله زلزالاً عظيماً... ثم نذر أن يتصدق على روح زوجته ما وسعه ذلك، وأن يقيم على جدثها الطاهر ما لم يؤد لها من قدّاسات وبكت جينفرا ما شاء لها أن تبكي، ثم جعلت تجمّج وتقول:

(وَيَ!) اذاك هو مدى ما أحببتي يا فرنسيسكو؟! وي! لابد أني كنت عبثاً عليك، ووزراً تنوء به، وتود لو تخلصت منه! وا أسفاه! أين أذهب يا ربي؟ أأفلت من ظلام القبر لأموت من البرد والضنى والجوع في أشعة القمر؟). وذكرت أن بيت أبيها قريب فانقلبت... وشرعت تخطو...

ولم يكن أبوها هناك...

وكانت أمها في الطابق العلوي، توشك أن تمضي إلى سريرها فتنام... فلما سمعت همس جينفرا وصوتها الخافت المستجد أطلت من النافذة لترى من الطارق...

وكان الشبح المريض المهزول يتكئ على مصراع الباب مما به من ونى وإعياء؛ ولم تَسْتَرْبْ به الأم المحزونة، فقالت له وهي تتوسل إليه: (انصرفي في سلام أيتها الروح...!) ثم أغلقت النافذة، وانكفأت إلى فراشها لتصل أحزانها على جينفرا...!

وعرت الفتاة رعشة من الحسرة لا من البرد، فشدت ذراعها، وذهبت على وجهها لا تعرف أيان تمضي... ثم خطر لها أن تلجأ إلى بيت من بيوت أعمامها، فلم تصل إليه إلا بعد أن جلست مرات ومرات تستريح وتستجم، وتمزج دموعها وأحزانها بضياء القمر الذي كان يبدو كأنه يبكي لها ويرثى لحالها، ويحوطها بغلالة دافئة من قمرائه.

وا أسفاه عليك يا جينفرا!

لقد وقفت بباب عمها فلم تلق أطيّب مما لقيت في المرات السابقة، ثم وقفت بباب عمها الثاني، فعمها الثالث، ثم بباب خالها، فخالها الآخر، فأبواب جميع أقاربها، فكانوا يردونها على أنها روح سارية، ويغلقون أبوابهم جميعاً دونها

واعترمت آخر الأمر أن تلجأ إلى مستراح سان بَرْتُولوميو لتنام فيه أو لتموت فيه، ولتستريح من هذه الدنيا التي تجهمت لها، وعبست بألف وجه من وجوه أقرّبائها... وما كادت عيناها الحزينتان تغمضان كما تغمض النرجسة الذابلة، حتى خطر لها أن تنهض من فورها، وتمضي إلى بيت حبيبها الوفي، أنطونيو

روندينللي، وإن تكن بينها وبينه مسافة طويلة، ضاعفها ضربها في المدينة أضعافاً مضاعفة...

ثم هجست في ضميرها بكليمات باكيات فكأنما كانت تقول: (ولكن!... ماذا انتظر من رجل لقي الولايات مني ومن ذوي؟ وماذا عساه يصنع لي وقد زادني كل أهلي عن منازلهم؟ يا رب! وحق أسمائك ما خنته! وحق ربوبيتك ما ضيعت موثقه!)

وذهبت تدلف إلى بيت أنطونيو وتهدج، حتى كانت لدى الباب، فوقفت تسمع إلى دقات قلبها، قبل أن تصغي إلى نقرها فوقه وفتح أنطونيو الباب... ولم يكد يقع بصره عليها حتى تقدم نحوها بدافع غريب قوي من الحب، أو من الشجاعة، ولم يتقاعس كما تقاعس ذووها، ثم طفق يحملق فيها ويقلب فيها عينيه من إخمصها إلى زؤابة رأسها، فلما أيقن أنها هي، تنفس صعداءه، وقال: (أأنت حقاً جينفرا؟ أم أنت روحها القديسة المطهرة؟) ولم ترد عليه، بل أرسل الحب ذراعيه القويتين إليها، فاحتملها كالطفلة، ثم أخذ يصيح من الجذل، داعياً أمه وخدمه ليزف إليهم البشرى، ولكن سرعان ما ارتد هؤلاء من الفزع حين أقبلوا ليروا فيما دعاء أنطونيو لهم، لما رأوه يحمل فتاة كالشبح في أكفان!!

وهرول به أنطونيو إلى مخدعه فسجأها في سريرها، وهتف بخادم فأحضرت الموقد ليدفئها بما بقي فيه من قبس، ثم دعا أمه فطمأنها، وجلست مع الفتاة في السرير تضمها وتجعلها في حضنها لتدفئها كذلك.

وكان الهلع يغشى أنطونيو خشية ألا يشيع الدفء في كيان حبيبته البارد المرتجف، فتذهب ضحية القر؛ بيد أنه اطمأن حينما رآها تثوب، وكان فرحه بها أشد من حزنه عليها، عندما فوجئ بنبأ وفاتها، وجلس عند قدميها فوق أرض الغرفة يرعاها ويتولاها بعنايته، غير مطمئن إلى ما كانت تبذل أمه من التلطف بها، والحدب عليها.

وانتعشت جينفرا، فهبت من السرير فجأة، ونزلت إلى الأرض، ثم أهوت على قدمي أنطونيو تقبلهما، وتريق عليهما دموع محبتها

وشكرانها، وترجوه أن ينشر عليها جناح الطهر من وده وصداقته، وأن ينسى إلى حين ما أنها حبيبته، وإن تكن تعد نفسها خادمة له، وترتضي العبودية في كنفه... ثم ذكرت والدموع تحجب عينيها، ما كان من شجاعته عندما رآها أمام بابه، فلم يفرو ولم ينزعج كما فر أهلوها وانزعجوا... وارتبك أنطونيو، وهم من مجلسه فرقع أمامها، وراح يطلب صفحتها عما عسى أن يكون قد بدر منه، مما أثرظنونها...

ولم تستطع جينفرا أن ترد عليه بلسانها، فأخذت كفيه، وضغطت عليهما بكفها الواهيتين، ثم انطلقت تغمرها بالقبل، وتنضحها بالدموع... وكان التأثر قد بلغ من أنطونيو مبلغاً عظيماً، فراح يبادلها دموعاً بدموع، وينكر على نفسه أنه أدى لها يداً غير ما يقتضيه الواجب والمروءة والإنسانية، وأنه لم يكن ينتظر جزاءً على ما صنع إلا أن تتدفق الحياة في جينفرا العزيزة... المعبودة! ثم سألها إن كانت تحب أن ينهض معها من فوره فيردها إلى ذراعي زوجها. قال:

(لا ترتبكي يا جينفرا... إن هذا واجب... إني أحضك عليه وإن يكن في قضائه قضاء علي...)

وامتزج بكاء جينفرا بجواها فقالت: (كلا... كلا... كلا... لن أعود إليه... لا أود أن أراه... إني أوثر أن ألقى في دير فأعيش فيه ميتة، على أن أعود إلى فرنسيسكو... وفضلاً عن هذا... فلقد فرق بيني وبينه الموت... لقد مت في اعتباره... ومشى في جنازتي... ووسدني التراب بيديه... وقبل ساعة كنت أطرق بابه، فلما رأيته فزع وطرطني... وأغلق الباب دوني... أرجوك يا أنطونيو... أرجوك ألا تردد اسمه أمامي... وإن أرغمني أحد على العودة إليه فسأشكو أمري إلى القضاء العادل ليفصل بيننا من جديد... سأقصد إلى كل محكمة... إلى كل سلطة دينية... لقد شهدوا جميعاً أنني مت، وصرخوا بدفني فدفنت حية، ولمه؟ لا شيء إلا ليستربحوا مني؛ أفإن شاء القضاء السماوي أن أنهض في رمسي بمعجزة، وعدت إلى الدنيا ولم أمت في القبر أشنع مودة، جاءوا من كل فج ليناوئوني،

ويحجروا علي من جديد؟!

وصمتت جينفرا، وأكب أنطونيو يسكب عباراته تحت قدميها الجميلتين المرتعدين، وما كانت دموعه تلك إلا دموع الفرح بما سمع من حسن توكيداتهما.

ولبثت جينفرا لدى حبيهما الأول الوفي

ثم حدث أن رأى فرنسيسكو أجولانتي عادةً هيفاء من ذوات اليسار فغزل بها وغزلت به، وأغرم كل بصاحبه، ففقد النية على الزواج... وما أن علم أنطونيو بذلك حتى انتهز هو أيضاً فرصته، وجعل يسعى لدى فرنسيسكو حتى اشترى منه كل جواهر جينفرا، وهو لا يدري أنها حية ترزق، وأنها قد نجت من براثن الطاعون والفناء بإرادة السماء... وعادت من عالم القبور لتخلق خلقاً آخر في صبيحة يوم من أيام الأحاد ذهب أنطونيو روندينلي من أعيان فلورنسة، ومعه السيدة جينفرا دجلي أميرة، وأمه العجوز الوقور المتضععة، وخادم من خدم قصره، إلى كنيسة المدينة الخالدة ليعقد على حبيبته جينفرا

وهناك في بهو الكنيسة الكبير، التقى هذا الجمع اليسير بجمع آخر حاشد غاية الحشد، فيه الفتى فرنسيسكو أجولانتي وأمه وملاً عظيم من ذويه وأصدقائه... ذاهبين للعقد على عادة فرنسيسكو الهيفاء الغنية المثيرة، ولما يمض على دفن جينفرا ثلاثة أشهر أو نحوها... والمؤلم المبكي أن أمها الساذجة كانت من ضمن المحتفلات بزواج ابنتها السابق... فما كادت العيون والأرواح تتعارف حتى ساد بهو الكنيسة صمت كصمت القبور، ووقف الجمعان خاشعين خابتين، ينظر بعضهم إلى بعض ولا يصدقون ما يرون!

ترى! من يتقدم ومن يتأخر؟

ولم تنتظر جينفرا طويلاً... بل تقدمت مسرعة نحو أمها التي أخذت تحديقاً فيها بصورها، وترنو إليها مسبوهة مشدوهة (أحقاً هذه جينفرا ابنتي؟ لم يكن شبحاً ما رأيت إذن... ويللاه!... ولكن... كيف عادت إلى هذه الدنيا ياترى؟ وأنى لها هذا الشباب

وتلك النظارة؟ إنها تميز في شفوف وأفواف)
ولم تتركها جينفرا لتصل هذه السلسلة من أحلام اليقضة، بل
قطعتها عليها قائلة:

(أما وقد ذهبتم بي إلى القبر فوسدتموني التراب بعد إذ شهد
أطبائكم بموتي، وبعد أن نثر القس زيتة المقدس على جثمانى معلنا
بذلك أنني انتهيت من هذه الدنيا، فإني أعلن بدوري أنني لم أعد
أمت إليكم بوشيجة، لاسيما بعد أن رفضتم جميعاً إيوائى حين
عدت إلى دنياكم بمعجزة من معجزات القدر في حين قد آواني ملاكى
أنطونيوروندينلى فأعادنى إلى الحياة والحب، ولولا ذلك لقتلنى
البرد والمرض أمام باب من أبوابكم، ولعدت إلى القبر عودة لا رجعة
لي بعدها إلى دنياكم... من أجل هذا كله أقرر أمامكم وأمام الحبر
الجليل سيد هذه الكنيسة، وفي هذا المكان المقدس أنني أصبحت
ملكا لحبيبي... وأننى إنما جئت اليوم ليشهد الله لنا...)

ثم ودعت أمها، وبعض الأعماء من ذويها، وانفلتت إلى أنطونيو
فضمته على مشهد من الجميع... وهنا... تأخرت جماعة
فرنسيسكو حتى يروا بماذا يحكم الحبر الجليل... فوقف هذا...
وهتف بأنطونيوثم بجينفرا فباركهما، وكتب لهما، ودفع الصحيفة
إلى أحد الرهبان فتلا ما فيها بما لا يزيد عما ذكرت جينفرا من
الحجج... ثم دعا للكنيسة... وتم القداس البسيط فكان أروع
قداس أبرم في كنيسة فلورنسا منذ أنشئت...

الحذاء المشئوم

جرازا دليدا

ضاقَت سبل الحياة بالفتى إيليا كراي فهو لا يجد عملاً، وهو لا يدري كيف يزجي هذا الفراغ العريض الذي وقع فيه على حين فجأة، ألا أن يقضي شطراً من نهاره في حجرة الانتظار بالمحكمة واضعاً كراسه على ركبته يثبت فيها ما توافيه به قريحته من أشعار يناجي بها زوجته الحبيبة، لقد كان الضجيج يعلو بازائه، والجموع تتقاطر من هنا ومن هناك: ففقيرات النساء يتخاضمن على دريهمات ضئيلة كأنما يتنازعن أقطار الأرض جميعاً، وشاهدو الزور يسرون في هدوء وأناة يبتغون شيئاً، وصغار المحامين يندفعون هنا وهنا يفتشون عن صيد جديد؛ هذا وإيليا جالس في هدوئه في زاوية الحجرة، يكتب إلى زوجته بعض الشعر وكأنه لا يحس مما حوله شيئاً:

(أنا أستطيع أن أرى الحياة بعيني عقلي، فكل ما يدور في العالم مقدر قبل أن يكون. أنا شاعر فيلسوف، فليس شيء في الحياة يثير في الدهشة لأنني أعلم أن الأيام تعلو بالمرء مرة وتسفل به أخرى. لا تقنطي - يا عزيزتي - فل ربما تذكرنا عى أغسطينو، أغسطينو الذي طرد زوجته، وحرمها ماله؛ لعله يذكرها يوماً فتذهب إلى شاطئ البحر معاً، نشهد القوارب تضطرب بين الأمواج الهائجة، ونحن نسير ذراعاً في ذراع كأننا عروسان في شهر العسل؛ على أننا - الآن - سعيدان، فالحب والاطمئنان يغمران قلبنا وحياتنا، وأنت يا سيدار؛ أنت فينوس هرموزا؛ أنت ثرائي وأنت ملكتي)

وفي صباح يوم من أيام الشتاء، أحس إيليا وهو في مكانه من حجرة الانتظار، حيث يجلس دائماً؛ أحس أن يداً قوية تجذبه في عنف، وسمع صوتاً خشناً يناديه: (أسرع! لقد كنت في (تيرانوفا)

وعملك هناك يعالج مرضاً مخطرأ... .

هذا صوت سائق ينهيه إلى أمر، ولكنه ما كان ليسلبه بعض هدوئه. لقد أرسل أنة خفيفة خافتة، ثم قال يحدث نفسه: (سأنشر هذا الخبر المحزن على عيني زوجتي)

لم تضطرب الزوجة لما سمعت، ولم تحزن، ولم تفزع من مكانها وهي جالسة أمام باب الدار تلتمس الدفء من أشعة الشمس، وقد ارتدت خير ملابسها، وانتعلت، وربت شعرها في دقة وأناقة؛ غير أن ملابسها وحذاءها وقد عبثت بها يد البلى، ووجهها وقد شحب وتغضن وذوى جماله، وعينها وهما تضطربان وقد خبا ضوءهما وانطفأ بريقهما؛ كانت كلها ترسم سطوراً واضحة في تاريخ فاقتهما وعوزهما

ومن أقصى المكان ارتفعت ضجة تشبه ما يسمعه إيليا دائماً في المحكمة: فهؤلاء أصحاب الدار يتنازعون فيما بينهم أمراً؛ وهذا الندى - وهو جزء من الدار - قد ضم جماعة يلعبون الورق ويمزحون في ضجة وصخب؛ والزوجة لا يعنها ما يدور حولها. أما هو - هو إيليا - الزوج العاشق فقد وقف بازاء زوجته يداعب شعرها في رفق وتحبب ويقول: (أف تعلمين ما أنا صانع؟ سأذهب!) قالت الزوجة: (إلى أين...؟) قال: (إلى أين؟ لعلك لم تعي شيئاً مما قلت! إلى عمي أغسطينو طبعاً! ما أجمل ما أرى في هذا اليوم...!) قالها وقد كتم في نفسه أموراً استشعرتها الزوجة المسكينة فراحت تحرق في حذائه الممزق مزقاً أعيت على الإسكافي، ثم قالت: (وأين لك بالمال تستعين به على السفر؟) قال الزوج في ثبات: (إن معي ما يكفيني، لا يشغلك هذا، إن كل ما في الكون يلد الحياة والجمال لو أن في النفس الهدوء والدعة. إن ما يهم المرء حقاً هو أن يحب الناس ويحسن معاملتهم. لقد شغلني هذا كل ساعات الصباح.. أفتر يدين أن تقرئي؟) ثم قطع قصاصة من دفتره وألقى بها في حجرها وهو يبتسم... ثم انطلق وما خلف من شيء سوى هذه القصاصة.

انطلق ماشياً لأنه لا يملك سوى ثلاث ليرات؛ وكانت فلسفته

قد أوحى إليه ألا يتخبط بين هذا وهذا، يقتصر، فيضيع وقته فيا لا غناء فيه... هذا نوع من الرياضة تعودده منذ زمان؛ وما كان لشيء ما أن ينزع عنه رزاقته أو يحاول بينه وبين أن يصل إلى عمه أغسطينو، وهو رجل سيار. لقد سار في نشاط وخواطره معلقة بحذائه دون قدميه، فهو يشفق عليه ويشفق...

بلغ إيليا (أوروسى) - وهي قرية في طريقه - ولم يحدث ما يعكر صفوه؛ فالطريق ممهد لا حب، والطبيعة جميلة تحنو عليه لتدنيه بعض متاعبه. لقد كانت رحلة ممتعة، في ناحية من الأرض سحرية، فالشمس تتألق كأنها ماسة كبيرة، وترسل أشعتها الذهبية في رفق على صخور الجبل، والحشائش تضطرب تحت نسيمات البحر الرقيقة. وحين اندفع هو في طريقه تراءت له الزهور الرفافة - زهور الربيع الجميلة - تنفث من عطرها الشذي في روحه النشاط، وتذكي في أعصابه القوة؛ ثم... ثم انحدرت الشمس إلى مغربها، فاستحالت حرارتها المنعشة إلى برد قاس تحمله نسيمات الليل؛ وأحس الرجل أن قدميه تننديان، وأن حذاءه قد انفج عنهما من هنا ومن هنا؛ فاضطرب وخانته رزاقته الفلسفية حين بدا لعينيه أنه لا يستطيع أن يصلح حذاءه أو أن يجد غيره؛ وأنه لا يقوى على أن يحمل هم الطريق وهم الحذاء الممزق معاً. وتمثل له ما يلاقيه من مهانة واحتقار حين يبدو في دار عمه رث الملابس، زري الهيئة، ممزق الحذاء، وهو لا يريد أن يكون هو أومن نفسه وعار زوجته حين يلج دار عمه في مثل حذائه. لابد أن يجد حذاء؛ ولكن كيف؟ أنه هو لا يدري... وبعد فترة كان يسير في شوارع القرية المهجورة المظلمة الندية وقد سيطرت عليه فكرة الحذاء الآخر. وفي ناحية من ساحة فندق هناك صغير يشع نوراً ذهبياً قوياً جذب إيليا إليه... جذب إيليا لينام ليلته في حجرة قدرة، حيث نام عاملان فقيران؛ وقد كان غطيظ أحدهما يستلب إيليا من أفكاره ومن نومهم معاً. استلقي الرجل على فراشه وما في رأسه غير صورة نعل جديد تراءى له أينما هفا خياله. في الشارع، في الحقل، في زاوية الحجرة، في صندوق في الزاوية الآخر، ثم هناك عند الباب

وكانت تحور أحياناً إلى أخرى بالية تنم عن الفقر والفاقة.
وظل إيليا تفزعه الريح العاصفة، والغطيط المدوي في أرجاء
الحجرة؛ والساعات تمر، وتعلق بصره بنجم يتألق في السماء كأنه
يسبح بين أمواج البحر المضطربة؛ وخياله عند زوجته وهو جالس
إليها ينشر على عينيها بعش أشعاره الرقيقة الطلية، وعند الحياة
الناعمة التي يحيها إلى جانبها لو ظفر بما يملك عمه.

وانتفض الرجل من فراشه بعد لأي وهو يضطرب، وانحنى
على حذاء العامل يريد أن يسلبه فوجده ثقيلاً واسعاً فتركه إلى
حذاء الرجل الآخر، غير أنه لم يجد شيئاً، وطن في مسمعيه صوت
أقدام تدب خارج الحجرة فاضطرب ووقف في مكانه وقد سيطر
عليه الحزن والفزع؛ وبدت له خسته فحزن... حزن حزن القلب
يستشعر الخطر المحقق؛ وحين انمحي الصوت دلف هو إلى الخارج
ليرى... ليرى الردهة خالية إلا من بصيص من نور، وإلا من قطعة
تحك جسمها في الجدار، وإلا من حذاء بازاء القطعة، بدا في عيني
الرجل جميلاً، فأنطلق إليه يخبئه في ثنانيا معطفه، ثم اندفع إلى
الشارع في هدأة الليل وسكونه. ولقد غادر الفندق لم يشعر به
أحد، ثم أسرع وتراءى له هو يسير على شاطئ البحر كأن كواكب
السماء تتساقط رويدا رويدا لتغتمر في هذه اللجة، فقال: (يا
عجباً! أكل شيء في الطبيعة والإنسان يريد أن ينهد؟) وظل يحدث
نفسه هذا الحديث وهو يخب في الظلام بين الصخور المظلمة
والبحر الداكن.

ومضت نصف ساعة جلس بعدها ليلبس الحذاء المسروق،
لقد بدا عليه السرور والفرح - بادئ الأمر - غير أنه ما لبث أن
استشعر الحسرة تفجره وتكاد تعصف به، فراح يحدث نفسه
(ماذا يكون لو أنهم تبعوني؟ سيقتلونني لاشك، ماذا تقول زوجتي
إذن؟ ستقول: ماذا صنعت يا إيليا؟ أف تسرق حذاء؟ أي فرق
بينك وبين من يسرق مليون ليرة، أيها السارق؟

واضطربت الفكرة في رأسه: (مليون ليرة! أين هي؟ أين أجدها
لو وجدتتها لا ختطفتها لا أني ولا أتباطأ!) ثم تمطى وهو يبسم لهذه

الخاطرة، ومد رجليه وحرك أصابعه في الحذاء الجديد؛ يا عجباً! لقد رانت على نفسه سحابة سوداء من الكآبة مرة أخرى، وشعر بقدميه تتقدان، وبأصابعه تختلج كأنها تنفر من هذا الحذاء المسروق! لقد سار في طريقه متكاسلاً، ومتأبطاً حذاءه ليستطيع أن يلبسه إذا تبعه أحد؛ ثم اضطرب وتوزعت الأفكار السود؛ فهو يلتفت إلى وراء بين الفينة والفينة ليرى من عساه يتبعه.

وانبثق الفجر كأنه شيطان مارد يحدجه بعينيه فيهما البغض والازدراء؛ يطل عليه وقد قنعتة سحابة دكناء من الضباب ليعث في نفسه الفزع والرعب، ولينذر بالفضيحة والويل؛ وهؤلاء الناس - عما قريب - ينسلون إلى القرية مارين به، وحين يسمعون قصة الحذاء المسروق يقول قائلهم: (نعم، لقد رأينا رجلاً هناك يسير مضطرباً، وقد تأبط حزمة بخبئها تحت معطفه...).

ورأى - وهو يسير - فلاحاً يسير الهويني، في طريقه إلى القرية، فخیل إليه أنه يحدق به، ويلتفت إليه بين الحين والحين وعلى شفتيه ابتسامة السخرية والتهكم.

ثم... ثم انحسر الظلام عن نهار حزين كالح؛ وقد نشرت السحب ذوائب طويلة سوداء تصل بين الجبل الشاهق والبحر المضطرب؛ والغربان تمر به وهي تنعق نعيقها المشؤوم؛ وقد انطوى الجمال الذي أحسه بالأمس في هذه الناحية؛ وبدت له الحياة عابسة تبعث في النفس الألم والضيق، ودوت في أذنيه أصوات تفزعه من مكانه لأنه رأى فيها أصوات الذين من خلفه يقصون أثره ويسخرون منه؛ فاستبدل حذاءه القديم الممزق بالحذاء الذي سرقه، ألقى به في ناحية ثم انطلق.

لقد ألقى بعض همه حين ألقى الحذاء المسروق، ولكنه مي زال في اضطرابه، وخیاله ما يفتأ يصور له أشياء! فهذان العاملان اللذان قضى معهما ليلته، على أثره يطلبانه بعد أن وجدا الحذاء الملقى... سيلبيانته ثم يدفعان به إلى المحكمة، وهناك... وهناك... .: وتراءى له جماعة يعذبونه ويعذبونه حتى يعترف...

ماذا تقول زوجته حيث يترامى الخبر؟ وتأججت الفكرة برأسه

يؤثرها الإجهاد والبرد والجوع، فأنطرح تتنازعه الخواطر المظلمة
كما تتناول الرياح الشديدة العاصفة سحابة في كبد السماء؛
ورجع إلى نفسه يلومها على أن طوحت به الأيام في هذه المتاهة،
يضرِب في الأرض، ويفقد الراحة والطمأنينة في وقت معاً؛ ثم هو لا
يطلب إلا سراباً أو أملاً كالسراب، ومن يدري؟ لعله لا يستطيع أن
يأتي بالحدة القاطعة يثبت بها أن أغسطينو هو عمه... وبرعم هذا
فهو قد ألصق بنفسه عاراً لا يغسل

نكص الرجل على عقبيه ممتلخ العقل، مأخوذ اللب، يحدق في
الحذاء الملقى في ذهول وبلاهة، أفيواريه التراب؟ أنه إن فعل فما
غير من الحقيقة التي في رأسه! أن هذا الحذاء مسروق، وأنه هو
السارق...

وتردد إيليا حيناً، ثم هوى إلى الحذاء يخفيه تحت طيات
معطفه، وارتد إلى القرية لا يستطيع أن يهبطها إلا أن يسدل الليل
أستاره، لقد غبر يوماً كاملاً لا يطعم شيئاً، فأحس بأعصابه تتراخي
ومشى الهوينى يترنح كأنه عود ذاو تعصف به الريح الهوج، وولج
الفندق ثانية وكأنه في حلم، وعلى شفثيه كلمة الاعتراف؛ غير أنه
وحد المكان هادئاً كأن شيئاً ذا بال لم يكن، ومرفما تعلق به بصر،
ولم تحم حوله شبهة؛ فتناول طعامه، ووضع الحذاء مكانه الأول،
ثم ألقى بنفسه في لجة من النوم العميق الهادئ، فما استيقظ إلا
عند ظهر اليوم التالي. وحين هم من مرقده اشترى رغيفاً بما بقي
معه من مال ثم سار...

وبد الجو في ناظري إيليا - مرة أخرى - جميلاً، والوادي كأنه
يبسم في رقة وظرف، والنبات الأخضر تنبعث منه القوة والنشوة،
وهو يندفع في سيره يفور نشاطاً وحيته على رغم هذا الحذاء الممزق
الذي تموج فيه قدماه، وهو - هو هذا الحذاء - كان يوقظ الرحمة
والشفقة في قلوب الذين يرونه فيمنحونه بعض الخبز واللبن يبلغ
بهما

وبلغ دار عمه وقد أجهده المسير وأضناه التعب، ولكن الأمل
كان يشرق في عينيه فيدفعه إلى الأمام... لقد مات عمه منذ

ساعات قليلة، وراحت الخادم تنظر إليه في دهشة وهي تعجب:
(أأنت ابن أخيه حقاً؟ لماذا لم تسرع إلى هنا؟) ولكنه وقف صامتاً،
فاندفعت هي تقول: (لقد أرسل إليك منذ ثلاثة أيام وانتظر. . .
انتظر طويلاً وهو يذكرك، ثم بدا له أنك نسيتَه ففقد الأمل. وحين
أحس بالموت يكاد يقصم عوده أوصى بكل ما يملك إلى اليتامى من
أبناء البحارة)...

فارتد إيليا إلى داره يحمل إلى زوجته الحبيبة إلى نفسه خيبة
الرجاء وضيعة الأمل وهو لا يستطيع أن يقول شيئاً. . .

الفهرس

مقدمة.....	ص3
الرواية في بونتاسياف.....لوسيو دامبرا.....	ص9
الوسيط بوكاشيو.....	ص31
ذلك الرجل..... جبريل دانونزيو.....	ص41
الأرنب..... جرازيا دليدا.....	ص49
ضحية الوهم ماسيمو بونتمبلي.....	ص55
هاكم قبعة أخرى..... لويجي براندللو.....	ص63
كانديلورا..... لويجي براندللو.....	ص73
صديقان حميمان لويجي براندللو.....	ص81
العبقري الملعون جيوفاني بابيني.....	ص89
شحاذا الأرواح.... جيوفاني بابيني.....	ص93
حياة جديدة..... دومنيكو مارياماني.....	ص97
الحذاء المشئوم... جرازيا دالدا.....	ص107

obeikandi.com